الـرؤية النقـدية

في

كتاب (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)

للمرحوم طه أحمد إبراهيم

إعداد

دكتور/ محمد محمد خميس

أستاذ مساعد الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :

(فتاريخ النقد الأدبي عند العرب) لمؤلفه الأستاذ طه أحمد إبراهيم دراسة تأتي في إطار العناية بتنظيم الدرس النقدي الأدبي وإقامته على أسس سليمة ، وسلوكه خططا واضحة ليستطيع النهوض بواجبه بين الدراسات الأدبية الأخرى ، وليبرأ من مغالاة من حاولوا فرض أصول النقد الأدبي الغربي وطرائقه على أدبنا العربي ، واتهامه بالتأخر والفقر إذا استعصى على هذه الأصول والطرائق ، وليبرأ من جهة أخرى من مغبة تقصير من وقفوا من النقاد المحدثين عند حد ما كتبه الأقدمون من نقاد العرب أمثال قدامة وابن رشيق والآمدي والجرجاني وغيرهم ، ممن غلبت على مذاهبهم الأفكار الجزئية ، والمباحث الموجزة الضيقة ، والنظرات السريعة ، إذ قلما تجاوزوا في نقدهم الكلمة المفردة ، والصورة الفذة ، والمعنى المستقل يبتكره هذا فيأخذه الآخر صرفا ، أو يتصرف فيه مجيدا فهو صاحبه ، أو مخطئا فهو سارق ممقوت .

ولما كانت هذه العناية تتوجه إلى النقد في جانبيه الرئيسين : الفني والتاريخي ، فإن هذه الدراسة التي عنى بها طه أحمد إبراهيم تتجه إلى الجانب التاريخي أولا ، ثم يبرز فيها الجانب الفني متمثلا في رصد

المرئيات النقدية لدى القدماء من نقادنا العـرب ، مع التعقيب عليها في كثير من الأحـيان في رؤية نقدية جديدة ، في جانب منها اسـتحسان لما ارتآه الأقدمـون وذهبوا إليه ، وفي جانب آخـر توقف في تلك المرئيات والمذاهب يعكس اتجاها جديدا في التناول والعرض والتحليل والحكم، يقوم على ذوق جديد وفهم جديد وثقافة جديدة .

ورى بعض الباحثين المعاصرين [1] للمؤلف أنه قـد بلغ من صدق الحس وصفاء الشعور درجة نادرة هيأته ومكنته من الحكم النقدي الذي لا يخطئ أبدا في نـقـد الأدب وتقـديره . فـهل جـاءت دراسـة المؤلف للتاريخ النقـدي القديم تشتـمل حقا على رؤيـة نقدية لا تخطئ أبدا ؟ ذلك ما استـهدفه بحثي وتغـياه ، إضافة إلى بيان جـهد المؤلف في إطار حركة النقد الحديثة .

وذلك في منهج للدراسة يقوم على هذا النحو :

أولا : يقتـضي البحث دراسة مـوجزة - بعد مقـدمته - في تمهـيد يتناول نشـأة المؤلف وحيـاته وعصره لما قـد يكون لذلك من أهمـية في التعريف به ، وبيان ذوقه وميوله واتجاهاته ورؤيته النقدية .

ثانيا : لم يرصد المؤلف في تسليم مطلق ملامح الحـياة النقدية في العصر الجـاهلي وما تلاه من عصور حتى القـرن الرابع الهجري ، وإنما

---

(١) الدكتور أحمد الشايب انظر تمهيده لكتاب المؤلف : تاريخ النقد الأدبي عند العرب صـ ز ،ج .

كان يتوقف عند كثير من القضـايا النقدية المثارة فتبرز له من خلال هذه الوقفـات رؤية نقدية ذاتية جـديدة ، تتجلى حـينا في استحـسان بعض المذاهب والمرائي النقـدية لدى القدماء ، وتتـبلور في إطار تحليلي ينمى هذه الأفكار والمرائي ويدعمـها من خلال رؤية ذوقيـة وثقافية وعـصرية جـديدة. وحينا في الـتوقف تجـاه بعض آخـر من هذه المذاهب والمرائي يؤدي إلى مخالفتها في الذوق والرأي والفكر والاتجاه .

وعلى حانب من توقـفات المؤلف المستحسنة أو المخـالفة تجلت له قـبسـات نقـدية جديدة في بعض الـقضـايا التي كـانت في حاجـة إلى إيضاح وبيان أو حسم أو إنصاف أو تحديد ونحو ذلك .

ولما كان من منهج المؤلف في دراسـته أن لا يكون مسلمـا بكل ما قيل ومـا طرح ، وأن يكون محايدا في مواقـفه فإنني أتوخى منهـجه في البحث وأترسم خطاه فيـه ، فأسايره في أبوابه وجزئيـاته ، وأتوقف معه فيما توقف فيـه ، سواء كان مؤيدا أو مخالفا ، في حيـدة تامة تستهدف الحق والإنصاف .

فـفي الباب الأول - مـثلا- أتـابعه في عـرضه الـتاريخي منظمـا منهجى في البحث على أساس تناول ما وافق فيه النقاد أولا ، فأبين هل كان مـوفقـا في رأيه ، أو جانبـه الصواب فـيما ذهب إليـه ، أو وقع في تناقض واضطراب، ثم أبين مـا خالفهم فـيه ثانيـا على نحو مـا أشرت إليه في أولا . وفي نهـاية البحث في الباب أبرز ما للمـؤلف من لمحات

نقدية متفردة إن ظهر له فيه شيء منها .

وأتوخى هذا المنهج في باقي الأبواب .

وعلي ضوء هذا تكون خطة البحث على النحو التالي :

المقدمة: وفيها أهمية البحث وخطته .

التمهيد : وفيه نبذة عن نشأة المؤلف وحياته وعصره .

الباب الأول : رؤية القضايا النقدية في العصر الجاهلي .

الباب الثاني : رؤية قضايا النقد عند الأدباء في صدر الإسلام .

الباب الثالث : رؤية قضايا النقد عند النحويين واللغويين .

الباب الرابع : رؤية نقد ابن سلام الجمحي .

الباب الخامس : رؤية الخصومات النقدية بين القدماء والمحدثين.

الباب السادس : رؤية قضايا النقد في القرن الثالث .

الباب السابع : رؤية قضايا النقد في القرن الرابع .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الخميس ١٣ من شعبان ١٤٢١ - ٩ نوفمبر ٢٠٠٠.

تمهيد :

١- طه أحمد إبراهيم [١] من الأدباء والنقاد المعاصرين . ولد في قرية (ميت عفيف) بمحافظة المنوفية . وتاريخ تخرجه من كلية دار العلوم المسجل بمضبطتها في عام ١٩٢٠ م . يشير إلى تاريخ مولده ، فهو في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين على وجه التقريب لا التحديد ، ولعل تاريخ التخرج في العصر الحديث يكون أكثر أهمية من تاريخ المولد ، إذا هو يحدد مرحلة النضج العقلي والثقافي ، إضافة إلى تحديد زمن يمكن رصد تياراته وتوجهاته ، مما يفيد في لمح خطى من تتغياه الدراسة ، ورؤية ميله واتجاهه . كما أن تحديد مكان التخرج يحدد الهوية الثقافية والعلمية ، وهو كلية دار العلوم بالقاهرة تلك التي تعنى باللغة العربية وآدابها ، إضافة إلى العلوم الشرعية . وهو من جهة أخرى يغنينا عن التنقيب في مراحل الدراسة التي تسبق الجامعية ، تلك التي كانت نظامية عامة ، يتحدد بعدها الميل العلمي والثقافي في كليات الجامعة . وهو ميل عند صاحبنا لغوي في المقام الأول وشرعي ، قد دفعت إليه فيما يبدو ملكة أدبية أثمرت مجموعة من الشعر ضاع أكثرها .

لم تكن دار العلوم هى الرافد الثقافي والعلمي الوحيد ، فقد دعمت الجانب اللغوي والشرعي عند صاحب السيرة مرجعية التراث

---

(١) انظر الأعلام للزركشي ٣/ ٢٣١ دار العلم للملايين ١٩٨٠ م .

العربي والإسلامي ، وثمة رافد آخر فتح أمامه بابا معرفيا جديدا ، ذلك هو جامعة السربون في فرنسا ، فقد بعث إليها لتلقى دراسات شرقية وأخرى غربية يزاوج بها بين الآداب الأوربية والآداب الغربية جريا على السياسة التي أنشئت من أجلها دار العلوم [1] وتم تخرجه منها في عام ١٩٢٥ م .

وبعد انتهاد الدراسة في السربون بدأت الحياة العملية بالعمل في مجال التدريس الذي يتمشى مع طبيعة العلوم والآداب التي تلقاها في الجامعة في مصر وخارجها . وقد انتهت به تنقلاته في التدريس إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٢٩ م ليقوم إلى جانب عدد من الرواد كطه حسين وأحمد الشايب بالتدريس لطلابها .

وكان كتابه موضوع الدراسة (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) ثمرة من ثمار تدريسه في هذه الكلية ، والتي ظل يتعهد فيها الطلاب بالتدريس حتى وافته المنية عام ١٩٣٥ م .

٣- عاش المرحوم طه أحمد إبراهيم حياته من أولها إلى آخرها في العصر الحديث ، عهد النهضة [2] التي بدأت تباشيره بدخول الحملة الفرنسية فى مصر ، واعتلاء محمد علي عرش حكومتها ، بل إنه عاش حياته في فترة من أخصب الفترات بالأحداث السياسية والاجتماعية

---

(١) شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر صـ ٢٤ دار المعارف .
(٢) دكتور محمد أحمد العزب : عن اللغة والأدب والنقد ص ٨٩ وما بعدها دار المعارف .

والعلمية والأدبية ، ففي مطلع فجر حياته كانت الحركة الوطنية التي أطلق عباس حلمي قيادها تتفق على ضرورة التخلص من الاستعمار الإنجليزي ، ثم تتوزع بعد ذلك بين من يرى الولاء للجامعة الإسلامية التي كانت الخلافة التركية رمزا لها ، وبين من يرى أن مصر يجب أن تكون للمصريين ، لا للخلافة التركية ، ولا للإستعمار . وكان للحركة الأدبية في المعسكرين ولاء ناضل من خلاله الأدباء معبرين عن مذاهبهم السياسية ، وأفكارهم الوطنية ، وكذلك قامت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ م ، وتبع قيامها أحداث جثام ، منها إعلان الحماية على مصر من قبل الإنجليز ، وعزل عباس حلمي ، وقيام ثورة ١٩١٩م وإعلان إنهاء الحماية في سنة ١٩٢٢ م ، وصدور الدستور في سنة ١٩٢٣ م . وفي خضم هذه الأحداث المتلاحقة ، صال الأدباء وجالوا ، كما شاركوا في صراع الأدب على ساحة القديم و الجديد والتراثي والحضاري .

بين سنة التخرج من السربون وبين وفاة صاحب السيرة عشر سنين . شغلت الحياة الوظيفية خارج الجامعة أربعا منها ، وما بقي من العشر لم يحفل بنشاط يشير لانتماء سياسي ، أو مذهب أدبي .

والواضح من سيرته أن وقته قد توزع بين التدريس والتأليف والقريض . علي أن مهنة التدريس على ضوء قلة ما ترك من آثار تبدو وكأنها قد استأثرت بمعظم الوقت والاهتمام ، ولم تعط فرصة لإظهار أثر الثقافة المزدوجة ، وإلى أيهما كان أكثر ميلا . ونلمح من ضياع

معظم شعره ضعف أثره على الصعيد الأدبي والاجتماعي ، وخمول ذكره بين المبدعين .

ولا يتردد من يقرأ مقدمته لكتاب (طبقات فحول الشعراء) وكتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب) في الحكم بتفوقه في مجال النقد وفهمه الدقيق ووعيه الواضح لحركة نقدنا العربي ، وقدرته على استيعاب قضاياه ، وتحليلها تحليلا علميا ينم عن ذوق أدبي رفيع ، نلمح في ثناياه بعض التأثر بمفرزات الثقافة غير العربية كما سيأتي .

الباب الأول

رؤية القضايا النقدية فى العصر الجاهلى

عرف الشعر العربي قبيل الإسلام محكما متقنا ، ولم يعرف النقد الجاهلي إلا في هذا العهد حيث كانت مجالاته وبيئاته أسواق العرب التي كانوا يجتمعون فيها ، ومجالسهم التي يتذاكرون فيها الشعر ، إضافة إلى تلاقيهم بأفنية الملوك في الحيرة وغسان [1].

والشعر العربي الذي عرف ممثلا للحياة في الجاهلية قليل جدا بالنسبة لما تمخضت عنه هذه الحياة من تجارب شعرية تولدت عنها أشعار غزيرة « قال ابن عوف عن ابن سيرين قال : قال عمر بن الخطاب كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره » وقال أبو عمرو بن العلاء :« ما انتهي إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر وفير » [2].ويقول ابن سلام أيضا [3]:

---

(١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ص ٣٤ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢ م .

(٢) المرجع والوضع السابق .

(٣) نفسه .

«ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقى بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليس يستحقان مكانهما علي أفواه الرواة .

لازم النقد الشعر في طفولته وفي مراحل نموه وازدهاره ونضوجه« وإذا كانت طفولة الشعر العربي قد غابت عنا ، فإن طفولة النقد العربي غابت معها ، وإذا كنا لا نعرف الشعر العربي إلا متقنا محكما قبيل الإسلام فإننا لا نعرف النقد إلا في ذلك العهد »[1]. وإذا كان ما حفظ من الشعر الجاهلي أقل بكثير مما ذهب وضاع منه ، وأنَّ ما جاءنا منه لا يمثل وفرته ، فإن النقد[2] الأدبي الذي جاءنا لا يمثل بطبيعته التلازم بينه وبين الشعر وفرة في النماذج والشواهد ، إذ انحصرت نماذجه وأمثلته في فترة النضوج والكمال .

ومن ثم كانت وقفات صاحبنا الفنية تماثل قلة النصوص الواردة ، وتبرز بشكل محدد في تسليمه ببعض ما قرره النقاد ، وفي توقفه في بعض آخر ، كما تتجلى رؤيته الجديدة في تحليل بعض الاتجاهات النقدية والتعقيب عليها .

(١) طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد عند العرب ص ١١ دار الحكمة بيروت لبنان

(٢) انظر شوقي ضيف : فنون الأدب العربي (النقد) ص ٢٦ دار المعارف الطبعة الخامسة .

أ- في سياق الاستشهاد [1] لوجود صور من النقد في الجاهلية عرض المؤلف لقصيدة (الخنساء في رثاء أخيها صخر التي منها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وما كان من إعجاب[2] شيخ النقاد (النابغة) بها . كما عرض لنقد الإقواء في بيتي النابغة [3]:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغداف الأسود

ولنقد الصيعرية في عنق بعير المتلمس كما قرر طرفة [4].

وقد أتناسي الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

ولاستحسان قريش لقصيدتي[5] علقمة بن عبدة

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ؟

و: طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصرحان مشيب

---

(١) تاريخ النقد ١٢- ١٥ .
(٢) الأغاني للأصفهاني ٩/ ١٦٣ دار صعب بيروت .
(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٦١ ، ٦٢ دار الكتب العلمية ١٩٨١ م .
(٤) المصدر السابق ص ٧٥ .
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ص ٥٨ ، ٥٩ دار الكتب العلمية ١٩٨٢ م .

ولحكومة [1] ربيعة بين حذار الأسدي في أشعار الزبرقان بن بدر، والمخبل السعدي ، وعبدة بن الطيب ، وعمرو بن الأهتم ، وبيان أيهم أفضل إذ يقول ربيعة : أما عمرو فشعره برود يمنية تطوى وتنشر ، وأما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزورا قد نحرت ، فأخذ من أطايبها وخلطه بغير ذلك . أو قال له شعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ، ولا ترك نيئا فينتفع به ، وأما أنت يا مخبل فشعرك شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده ، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء .

ثم عرض أخيرا لتفضيل عمرو بن الحارث الأعرج الغساني لحسان [2] بن ثابت على النابغة وعلقمة ، وثنائه على قصيدته :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

ب- سرد المؤلف هذه الشواهد وغيرها سردا تاريخيا لم يكن له أثناءه رؤية فنية مغايرة .

ونقد وجود الصيعرية في عنق البعير من قبل طرفة لا يحمل علي التسليم به على الرغم من وروده في رواية أبي عبيد إذا يقول [3]: «الصيعرية سمة في عنق البعير ، ولما سمع طرفة هذا البيت من المسيب

---

(١) المرزباني : الموشح ص ٩٣ دار الكتب العلمية ١٩٩٥ م .
(٢) ديوان حسان ص ١٧٨ دار بيروت للطباعة ١٩٨٣ م وانظر جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ٣٩ دار الميسرة ١٩٨٣ م .
(٣) لسان العرب مادة ص ع ر .

قال له : استنوق الجمل ؛ أي أنك كنت في صفة جمل ، فلما قلت الصيعرية عدت إلى ما توصف به النوق يعني أن الصيعرية سمة لا تكون إلا للإناث) فقد قال أبو علي في[1] التذكرة : الصيعرية وسم لأهل اليمن لم يكن يوسم به إلا النوق ، وقول المسيب ابن علس :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

يدل على أنه قد يوسم بها الذكور ، فهو لم يكن رسما شائعا في كل القبائل ، ولم يكن رسما محل اتفاق بين الجميع ، ولو كان كذلك لما غاب عن المسيب .

على أنه من جهة أخرى قد يكون المسيب عمد إلى وصف ناقته بما يوصف به الفحل تأكيدا على قوة تحملها وشدتها ، وتكون الصيعرية محل الإشكال قد وضعت في موضعها .

ولم تكن أيضا ثمة رؤية موازنة بين جمع هذه النصوص ، على حين يفرز التأمل والتذوق أن حكومة ربيعة بن حذار نموذج نقدى من أرقى ما وصلنا من النماذج الجاهلية ، وذلك لأنه لا يدور في فلك خارج عن الشعر نفسه ، ولا يتعلق بجزئية محدودة في النص الشعري كما هو حال النماذج النقدية الأخرى[2].

---

(١) لسان العرب مادة ص ع ر .

(٢) إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٣ ، ١٤ دار الثقافة بيروت .

في سياق الحديث [1] عن ملكة النقد عند الجاهليين ، وقيام هذه الملكة على عنصر فني وحيد هو الذوق الفني المحض نازع المؤلف القدماء فيما ورد عنهم من نماذج نقدية يلوح فيها عنصر آخر إضافة إلى العنصر الأول ، وهو الفكر وما ينبعث عنه من تحليل واستنباط ، فقد استبعدهذا العنصر ورآه غير مناسب ورآه غير ملائم للروح الجاهلية وطبيعة العصر الجاهلي ، ثم أخذ يناقش بعض الشواهد الواردة على النحو التالي :

أ- أورد بيت حسان [2](رضي الله عنه)

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ثم علق عليه منكرا : عيب على حسان أن يفتخر فلا يحسن الافتخار وأن يؤلف بيته من كلمات غيرها أضخم معنى منها ، وأوسع مفهوما ، ترك الجفان والبيض والإشراق والجريان ، واستعمل الجفنات والغر واللمعان والقطر ، وهى دون سابقاتها فخرا ، وكل ذلك يرفض رفضا علميا من عدة وجوه :

أولا : لم يكن الجاهلي يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير ، وجموع القلة وجموع الكثرة ، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه

(١)طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب من ص ١٨إلى ص٢٥ .
(٢) الموشح ص ٧٥ وما بعدها .

الأشياء كما فرق بينها ذهن الخليل وسيبويه ، ومثل هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم ، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ ، وألم بشيء من المنطق .

ثانيا - ولو أن هذه الروح جاهلية لوجدنا أثرها في عصر البعثة يوم تحدى القرآن العرب ، وأفحمهم إفحاما ، فقد لجئوا إلى الطعن عليه طعنا عاما ، فقالوا سحر مفترى ، وقالوا أساطير الأولين . ولو أن لديهم تلك الروح البيانية لكان من المنتظر أن ينقدوا القرآن على نحوها. وأن يفزعوا إليها في تلك الخصومة العنيفة التي ظلت نيفا وعشرين عاما ، هذا إلى أن تلك الروح في النقد لا أثر لها في العصر الإسلامي ، لا عند الأدباء ، ولا عند متقدمي النحويين ،واللغويين .

ثالثا- علي أن من نحاة القرن الرابع من لم يطمئن إلى ما سبق ، فأبو الفتح عثمان بن جني يحكي عن أبي علي الفارسي أنه طعن في صحة هذه الحكاية .

ب-وتوقف في ارتياب وحذر عند قصة[1] أم جندب في حكومتها لعلقمة الفحل بالتفوق على زوجها امرئ القيس حينما وصفا فرسيهما في شعر علي روي واحد ، وقافية واحدة ، فقال امرؤ القيس :

فللسوط الهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج منعب

(١) الموشح ص ٣٩ .

وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

ففرس امرئ القيس كليل بليد يضرب بالسوط ، ويثار بالساق ، ويهاج بالزجر والصياح ، وأما فرس علقمة فنشيط لا يحتاج إلى إهاجة، يسرع في عدوه إسراعا ، وينصب في السير انصاب الريح ، يجري خلف الصيد ولجامه مشدود إلى وراء منثن غير مرخي .

ومجمل ارتياب المؤلف وحذره ورفضه لكثير مما جاء في قصة أم جندب أن الحكم بتفضيل علقمة غير مقبول عقلا ، بل المعقول أن يكون مفضولا لتأخر قصيدته في الظهور على قصيدة امرئ القيس ، ولتكرار جاء في أبيات تلك القصيدة أو لشطرات فيها ، وجد مثله في قصيدة امرئ القيس . ثم إن كان في بيت امرئ القيس ما يفهم منه أنه حمل فرسه علي الجري حملا ففي مجمل قصيدته ما يفهم منه أنه استدرك هذا الخلل وعالجه ، خصوصا في البيت التالي لهذا البيت . علي أن نسبة القصيدة التي جاء فيها بيت امرئ القيس إليه أمر فيه شك لعدم توافقها مع طبعه الذي نحسه في شعره الصحيح . وهو افتنانه وافتتانه في وصف الخيل والصيد وشهرته بذلك . وأن الموازنة على شريطة الجمع بين ثلاثة أشياء فكرة على شيء من الدقة لا تتلاءم مع الروح الجاهلي ، كما لا يتلاءم معه إدراك الفرق بين الروي والقافية .

ج- قرر المؤلف أن الاختيار لقصائد دون أخرى يعد عملا نقديا

لقيام المختار على عناصر فنية ترجحه وتميزه ، أو لصلته بالحياة الاجتماعية ، أو لحسن تصويره لهذه الحياة ، واختياره على العموم حكم ضمني بجودته وتفضيله على سواه .

ثم قال بعد ذلك : إن العرب اختاروا قصائد من الشعر الجاهلي وكتبوها بماء الذهب ، وعلقوها بأستار الكعبة وكان ذلك تعظيما منهم لتلك القصائد ، وإكبار لها ، وابن عبد ربه هو أول من ذكر تلك القضية وتبعه في إيرادها ابن رشيق صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده وابن خلدون في مقدمته .

ومع تسليم المؤلف بوجود القصائد إلا أنه أنكر قصة الكتابة والتعليق ، وكان إنكاره قائما على حجج ملخصها :

أولا : تأخر هذه القصة إلى عهد ابن عبد ربه ، وذكرها أول ما تذكر عن أديب أندلسي تجريح لها ، إضافة إلى عدم إسنادها من قبل ابن عبد ربه إلى أديب قبله يستبين منه المختار لها ، ومن كتبها وعلقها ونحو ذلك مما يحيط بقصة الكتابة والتعليق .

ثانيا- مما يبطل قصة الكتابة أن العلماء قد اختلفوا في عددها وفي أصحابها .

د- تلك رؤية المؤلف فيما خالف فيه النقاد في بعض قضايا النقد الجاهلي ولنا في التعقيب عليها وقفتان :

الأولى - هل من المستحيل - مع وجود النقد الذوقي التأثري

الفطري الذي غلب على التناول النقدي في الحياة الجاهلية - أن تكون هناك بعض الوقفات النقدية التي تتجاوز حدود التأثرية الذاتية إلى نطاق نقد يقوم على تأمل فكري ، ويتبلور في شكل أحكام تنم عن ذوق وفكر ؟

إن وقف النقد العربي في الجاهلية علي التأثرية الذاتية وتجريد الحياة الأدبية فيه من نقد يقوم على التحليل ، لا يتناسب مع ما قيل من بلوغ العرب ذروة[1] الفصاحة والبلاغة يوم جاءهم القرآن وتحدوا به ، كما لا يتناسب مع ما يروى عنهم من نقد ذاتي تأثري ، وما يحكى عنهم من إقامة أسواق للتحكيم وحضور مجالس للتناظر ، فبعيد أن تظل حياتهم طوال قرن ونصف أو يزيد هى فترة نضوج الشعر العربي قبل الإسلام ، يجولون في أحكام تأثرية تخلو في جملتها من موقف - ولو قيل أو نادر - يستدعي تفصيلا في القول ، وتعليلا في الحكم . وقد يكون أقرب إلى الصحة[2] أنهم استغنوا في كثير من الأحيان - من باب الاعتماد على السليقة والفطرة والذوق السليم - عن إظهار النقد الذي تبرز فيه العلة والتحليل ، ولا مانع من هذا من ظهور مواقف استدعت أمثال ما وجدناه في بيتي حسان وفي بيتي امرئ القيس وعلقمة.

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٤٨/٢ ، ١٤٩ دار المعرفة بيروت.
(٢) محمد عبد المنعم خفاجي . دراسات في النقد الأدبي ص ٩٨ دار الطباعة المحمدية .

وإن ذكر نقد يقوم على التحليل والتعليل لمن شهد الجاهلية والإسلام من النقاد ليقوى عدم استبعاد ورود مثل هذا النقد في الجاهلية قبيل ظهور الإسلام وقد ذكر المؤلف [1] قصة نقد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وتفضيله لزهير علي غيره ، وإظهاره لمقومات هذا التفضيل ؟! .

الثانية : متابعة المؤلف تفصيلا في رؤيته تجاه بعض نماذج الجاهليين التي نازعهم فيها تبرز تحفظا في التسليم بكثير من رؤاه :

١ - عدم معرفة الجاهلي بمصطلحات علم النحو التي ظهرت بعد عصره ، لا ينفي عنه معرفة دلالات الألفاظ ، ومعرفة الفرق بينها في الدلالة .

والمؤلف نفسه يقول : « وإذا لم يكن عجيبا أن يتكلموا فيعربوا ، وأن ينظموا فيصححوا الوزن دون أن يكون لهم عهد بنحو أو عروض، فليس عجيبا أن يدركوا بعض عناصر الجمال ، أو بعض مظاهر الضعف في كلامهم دون أن يكونوا في حاجة إلى أصول علمية توقفهم على ذلك » [2].

---

(١) تاريخ النقد ص ٣١ وما بعدها . وقد ورد نقد عمر رضي الله عنه في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٤ دار لكتب العلمية ١٩٨١ م وجمهرة أشعار العرب للقرشي ص ٢٥ دار الميسرة بيروت ١٩٨٣ م .
(٢) تاريخ النقد ص ٤٧ .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الوجه الأول في رؤية المؤلف تجاه نقد بيتي حسان يكون واهيا .

٢- وفي الوجه الثاني تجاه نقد البيتين يذهب المؤلف إلى عدم وجود مثل هذه الروح البيانية التي تقوم على الفكر في نقد الجاهليين، ولو كانت لوجد مثلها تجاه نقد القرآن عندما صدر التحدي للعرب .

وعجيب ذلك الربط بين إعجاز القرآن في التحدي وعدم وجود النقد الفكري ، ولا تلازم بينهما . وأكثر عجبا أن لا يفطن إلى قيام التحدي وبقائه أبدا [1] وعجز من أوتى ملكه التحليل والتعليل والتفكير النقدي من اللاحقين عن تحدي القرآن .

٣- أما الوجه الثالث - وهو مستند - المؤلف فيما ذهب إليه فيتمثل في طعن أبي علي الفارسي في صحة حكاية بيتي حسان . وهو يمثل وجهة نظر فردية أكثر ما تؤثر به أن تحمل على الحذر والحيطة في شيء من القصة لا في كل دلالاتها .

٤- وفي قصة أم جندب مع زوجها وعلقمة تغير موقف المؤلف ، فهو في قصة حسان مع النابغة في عكاظ يقطع بالرفض ، وهنا يكتفى بالارتياب والحذر مع اتحاد القصتين في فكرية النقد .

٥- وذهب إلى عدم عقلانية تفضيل علقمة على امرئ القيس ،

---

(١) ذهب البعض إلى حصر التحدي في أهل العصر الأول ، وقد رد الباقلاني بإسهاب عليهم في كتابه : إعجاز القرآن ص ٧ وما بعدها .

لأن امرأ القيس أسبق في القول من علقمة ، والفضل للسابق، ولأن اللاحق كرر أبياتا وشطرات وردت عند السابق ، وذلك مخل بقصيدة.

وفي ذلك نظر ، فإن الفضل قد يكون لعلقمة لأنه استطاع التفوق رغم انحصاره في معاني وقافية وروي امرئ القيس الذي فرضها عليه مادامت الموازنة ستقوم على هذا الشرط ، وأما ورود التكرار عند علقمة فذلك أمر طبيعي يوجد كثيرا في باب المناقضة كما في شعر جرير والفرزدق وجرير والأخطل وقد كان علقمة يتعرض لمعاني امرئ القيس كما في بيتي الشاهد الذي معنا .

٦- وأما كون امرئ القيس استدرك ذلك في البيت التالي لبيته المنقود فليس ذلك صحيحا . فالبيت التالي هو :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخدروف الوليد المثقب[1]

وهو يصور سرعة الجواد ، دون تعرض لكونها طبيعة أو صدرت عن محفزات ، على حين جاء بيت الشاهد يبين أن سرعة الجواد بعوامل ألهوب الساق ، ودرة السوط ووقع الزجر .

٧- على أنه لا ينبغي أن يحملنا تفوق الشاعر في غرض ما ، وشهرته في القول في هذا الغرض على حسن الظن به والقول بعصمته من الخطأ حتى ولو ذهب إلى ذلك ناقد متأخر كعبد الله بن المعتز .

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٩ دار بيرت ١٩٨٣ م .

٨- وكون الموازنة على شريطة الجمع بين ثلاثة أشياء هى الموضوع والروي والقافية لا تتلاءم مع الروح الجاهلي الذي لا يدرك الفرق بين الروي والقافية . فإن المؤلف نفسه أورد قصة الإقواء[١] في بيتي النابغة ولم يشك أو يشكك فيها ، والإقواء هو اختلاف حركة الروي ، وهو أمر أدركه الجاهلي وتلاءم مع روحه وذوقه ، ولو لم يكن كذلك لما فطن النابغة إلى العيب ، بل ولما فطن المتلقون لشعره إليه وأرادوا تنبيهه بلطف الغناء .

وأما معرفة القافية ، وإدراك أثرها الإيقاعي والفرق بينها وبين الروي فذلك مؤكد من التزام القافية في القصيدة ، ووحدة الروي عند الأغلبية العظمى ، بل عند الجميع إلا في حالات نادرة . ولا تسليم للمؤلف في هذه النقطة إلا في قوله بعدم معرفة الجاهلي لمصطلحات العلوم ، فذلك صحيح لا مرية فيه .

٩- وفي قصة المعلقات وهى عدد من القصائد الجاهلية اختلف فيه ، أبرز المؤلف عدة قضايا هى الاختيار والكتابة والتعليق .

وهو لم يذكر الاختيار ، بل أسس[٢] له قاعدة تبلورت فيما كان يعرضه الشعراء على قريش فتستحسنه وتصدر تجاهه أحكاما أشبه بالتوقيعات ، وفي نسبة هذه القصائد إلى الجاهليين عن طريق بعض الرواة كحماد الراوية ، وأبي زيد القرشي .

---

(١) تاريخ النقد ص ١٣ .
(٢) السابق نفس الموضع .

وبقيت قصة الكتابة والتعليق تعيش في بؤرة الشك لدى المؤلف ، وهى قصة لا تفيدنا إلا في بيان شأن هذه القصائد لدى الجاهلين بعد أن تثبت أصلها ، بل لا يغض من قيمتها ألا تكتب وتعلق ما دام قد تم اختيارها أو أطلق عليها ما ينم عن رفعة شأنها لدى الجاهليين ، وكان يكفي أن يلم المؤلف في وقفة قصيرة بهذا كله ، غير أنه تعرض لابن عبد ربه ذاكر القصة هو ومن تبعه من الأندلسيين كابن رشيق وابن خلدون ، فذكر أن ورود قصة الكتابة والتعليق عن طريق أندلسيين في القرن الرابع تجريح لها ، وأسس ذلك على أن المشارقة لم يذكروها في أمهات كتبهم ، ولنا أن نتساءل : هل أحاط المشارقة بكل شيء خبرا؟ وهل وصلنا كل ما لديهم في العلوم والفنون والآداب ؟ وهل نشك في كل شيء لم يصدر عن المشارقة ، ولم يرد في كتبهم ؟ . ثم يعود المؤلف فيقرر أصلا مشرقيا لقصة التعليق هو ورود ذلك عن حماد الراوية فما معنى إنكاره لورودها من قبل ذلك عند المغاربة ؟ !.

-٣-

ويستقل المؤلف [١] ببعض النظرات النقدية الممثلة لذوق عصره وثقافته ، فينصف الاتجاه العام في النقد الجاهلي والذي خلص إلى نقد الصياغة والمعنى ، ولم يرق إلى أفق الجمال الفني ، ويعد ما صدر عن النقاد نقدا رغم ذلك ، ويعتذر عنهم بالتأثر بطور النشأة وخصائصه ،

(١) انظر ص ١٥ ، ١٧ .

وكونهم في مرحلة تستلزم ما صدر عنهم من توجه نقدي .

وعلى صعيد الهدف والغاية من النقد يشير إلى اتجاه خطير إلى جانب الغاية الفنية التي تتوخى وضع الأمور في مواضعها ، ووضع كل شاعر في مكانته التي هو أهل لها ، ذلك الاتجاه الخطير هو : التجريح والغض من الخصوم أو المدح والإشادة بالذكر علي طريقة الشعراء في المدح أو الهجاء . ثم يشير إلى خطورة هذا الاتجاه في النقد مبينا أثر العصبية في إفساد بعض الأحكام .

غير أنه عمم الحكم على كل الشواهد حيث يقول : فقد يخلص النقد من الهوى ، ولكن روحه تظل متأثرة بالنزعات العربية في التمدح والثناد والذم ، ولن تستطيع أن تخلي طرفة من السخرية بالمتلمس ، ولا قريشا من قصد الثناء على علقمة ، ولا حسانا من الجزع الذي يصيب المهجوين .

وقد وفق المؤلف في الربط بين هذه الروح في النقد وبين طبيعة الشعراء واتجاهاتهم ، إذ كل النقاد في هذا العصر شعراء يحسنون القريض ولا ينعزلون عن طبيعتهم الشعرية أثناء تليسهم بالنقد ، أما تعميم حكم التعصب علي كل النماذج ففيه نظر يستوجب قيام الدليل على هذا الحكم .

الباب الثاني
رؤية قضايا النقد عند الأدباء في صدر الإسلام

قسم المؤلف حديثه عن نقد الأدباء في صدر الإسلام عدة أقسام:

في الأول - تحدث عن النقد إبان عصر البعثة فبين أنه نقد لا يزال فطريا يعتمد على الذوق في ظل نشاط ملحوظ نتج عن الاحتفال بالشعر ونشاطه . وفي هذا القسم احتج المؤلف لعدم وجود الروح العلمية في النقد فقال : ولو أن للعرب روحا علمية إذ ذاك تظهر ما في القرآن من جمال ، أو تتصيد فيه ما تحمل عليه الخصومة لكان لنا في النقد الأدبي كلام حسن يؤثر عن ذلك العصر ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن »[1] .

ولا شك أن الروح العلمية تظهرما في القرآن من جمال كما هو الشأن عند المتأخرين من النقاد والبلاغيين أمثال الزمخشري في الكشاف ، وعبد القاهر الجراجاني في كتابيه أسرار البلاغيين ودلائل الإعجاز ، ولكنها لم تتصيد في القرآن ما تحمل عليه الخصومة مهما بلغت الروح العلمية من النضوج والتقدم ، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[2].

ثم لم يتوقف المؤلف بعدما أبرز نشاط الحركة النقدية عند نماذج نقدية محددة تظهر له تجاهها رؤية واضحة .

---

(١) تاريخ النقد ص ٢٧ .
(٢) سورة النساء آية : ٨٢ .

وفي الثاني حصر أسباب وبواعث النقد في الوفادة على الخلفاء ، وفي أحاديث المجالس بين الأدباء ، وفي نشاط غرضين متضادين هما المديح والهجاء ، ثم عرض لصور النقد التي أثرت في عهد الخلفاء بمقتضى هذه البواعث .

-١-

١- ذكر مواقفا أن الحطيئة[١] هجا الزبرقان بن بدر بقصيدته التي جاء فيها :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ثم ذكر غضب الزبرقان واستعدائه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحطيئة ، وما كان من حكم حسان رضي الله عنه على قول الحطيئة من أنه أنكى من الهجاء

وقد وافق المؤلف على حكم حسان ثم عقب قائلا :

« وهذا تقدير لشعر الحطيئة ، وإفصاح عن قوة معانيه ، وشدة إيلامها للنفوس »[٢].

٢- وعلى نفس الشاكلة عرض لهجاء النجاشي الحارثي لبني العجلان ولإعجاب عمر[٣] بنزعة سحيم الدينية .

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٥٠ ، ١٥١.
(٢) تاريخ النقد ص ٣٢ .
(٣) الشعر والشعراد ص ١٥٢ ، ١٥٣.

-٢-

١- في قضية من أشعر الشعراء التي أصدر فيها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حكمين متناقضين في الظاهر إذ حكم مرة للنابغة[١]، وأخرى لزهير[٢] تجلت للمؤلف رؤية نقدية [٣]جديدة تفصل في هذا التناقض الظاهر وترده إلى ما يحيله إلى توافق وتتلمس له ما يقبله الفن من تخريج، فذكر أن مرد هذين الحكمين المتعارضين في الظاهر إلى قيام النقد حتى عصر الخلفاء على التأثر السريع الذي يقتضي الإعجاب ببعض الأبيات، أو القصائد، وتقديم صاحبها كأثر لهذا الإعجاب وأن هذا الإعجاب وقتي لا يلبث أن يزول بإختلاف المواطن والأصول وفراغ القلب من أثر الإعجاب بما سمع وقيل، وتهيئة لسماع جديد في الشعر يستلزم مرة أخري تأثرا سريعا، وإعجابا عارضا. ثم ذكر المؤلف شيئا آخر يبعد هذا التناقض ويجعله ظاهريا فقط هو: أن أشعر تنصرف إلى المعاني، أو الغرض الذي يجري به الحديث، فكثيرا ما تذكر كتب الأدب أن فلانا أشعر الناس، وتتبع ذلك بعبارة: حيث يقول.

٢- وعلى ضوء رؤية جديدة راصدة لحركة النقد التحليلي جزم المؤلف بأولية [٤]عمر كناقد تعرض نصا للصياغة والمعاني، وأقام

---

(١) الأغاني ٩/ ١٦٢.
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٥.
(٣) تاريخ النقد ص ٢٩.
(٤) السابق ص ٣١.

حكما في النقد علي أصول متميزة ، وذلك الحكم قائم علي إنكار وشك فيما صدر عن الجاهليين من نقد تحليلي كما في قصة النابغة مع حسان وأم جندب مع زوجها وعلقمة .

وقد عقبت في الفصل السابق عند ورود القصتين على شك المؤلف وإنكاره ، واتخذت من نقد عمر رضي الله عنه بحكم إدراكه للجاهلية مستندا فيما ذهبت إليه . ولو أن المؤلف- يرحمه الله - ذكر قصة نقد عمر هناك ، أو ذكرها هنا دون أن يعزو روح النقد التحليلي عند عمر إلى روافد إسلامية لكفانا في تلك الوقفة هنا والوقفة هناك .

في القسم الثالث : وهو أهم أقسام هذا الباب ، لارتقاء النقد أواخر القرن الأول وازدهاره بشكل ملحوظ ، وهي الفترة التي جعلها المؤلف مناط حديثه عن حركة النقد ونشاطه عند الأدباء في صدر الإسلام عرض لبعض النماذج معبرا عن ارتياحه تجاه النقد الموجه إليها دون إبداء أسباب الارتياح مرة ، ومبديا لها مرة أخرى .

-١-

١ - ذكر قصيدة[1] الكميت :

أبت هذه النفس إلا ادكارا

ثم ذكر استحسان (ذو الرمة) لما بدا فيها من نغم راقص ثم عقب

---

(١) تاريخ النقد ص ٣٦ .

هو موضحا بقوله : والقصيدة من بحـر المتقارب ، ولهذا البحر نفحات راقصة من غير شك [1].

٢- وعرض لبيتي [2]ابن قيس الرقيات :

إن الحـــوادث بالمدينة قد ... أوجعنني وقر عن مروتيه

وجببنني جب السنام ولم ... يتركن ريشا في مناكـبيه

ولقول [3]عـبـد الملك في نقـدها : أحـسـنت لـولا أنك خنثت في قوافيه. ولرد ابن قيس بقوله : ما عدوت كتاب الله ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [4]. ثم عقب هو بقـوله ولكن الفرق جـسيم بين أواخر هذه الفواصل في النغم وفي الروح ، وبين قوافي ابن الرقيات .

٣- وذكر[5] بيتي ليلي الأخيلية في الحجاج الثـقفي وما وجه إليها من نقد[6] في كلمة غلام :

إذا ورد الحجاج أرضـــا مريضـــة ... تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها ... غـــلام إذا هز القـناة ثناها

---

(١) تاريخ النقد ص ٣٦ .
(٢) السابق ص ٣٧.
(٣) الشعر والشعراء ص ٢٧٢ .
(٤) تاريخ النقد ص ٣٩ .
(٥) الأغاني ١٠/ ٨٣, ٨٤ .
(٦)(الحاقة : ٢٨ - ٢٩) .

٤- وكذلك قول القطامي [١] في زفر بن الحارث ، وما وجه إليه من نقد[٢] في معناه :

فإن قدرت علي يوم جزيت به والله يجعل أقواما بمرصاد

٥- وقول جرير في عبد الملك بن مروان :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا [٣]

ثم عقب بقوله : وكل ذلك راجع إلى أن في المعاني ضعفا ، أو خروجا علي الذوق ، فالوالي مهما كان قوي البطش لا يصح أن يوصف بما يشم منه الطيش والسفه ، ومهما انتظر المحسن من الشكر فليس من حسن الذوق أن يتمنى له الشاكر عشره يجازيه بالإقالة منها على ما أثاب ، وبديهي أن من الغرور والعجب أن يكون الخليفة رئيس الشرطة لجرير .

-٢-

وإذا كان المؤلف قد وفق في رؤيته التعقيبية علي النماذج السابقة؛ وصدر في تعقيبه عن حس نقدي رفيع[٤] ، فإنه في بعض النماذج الأخرى خدع بما قاله الأقدمون .

---

(١) تاريخ النقد ص ٣٩ .
(٢) الموشح ص ١٩٢ .
(٣) السابق ص ١٥١ .
(٤) تاريخ النقد الأدبي ص ٣٧ وما بعدها .

١- ذكر بيت الكميت :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب

وذكر نقد[١] نصيب له ، والمتمثل في الجمع بين الأنس والشنب ثم عقب قائلا :

فنصيب ينقد معني في بيت الكميت ، ولأنه قد جمع بين أمرين لا يجتمعان في الخارج ، ولا في الذهن ، أو لم يأت بما سماه المحدثون مراعاة النظير .

٢- وذكر قول عمر بن أبي ربيعة :

قالت : تصدي له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد في أثري [٢]

وما عده كثير على عمر من وصف المرأة بالتبذل . وعقب بقوله : والحبيبة يجب أن توصف بالتمنع لا بالتبذل .

٢- وذكر قول ذي الرمة في بلال بن أبي بردة :

رأيت الناس ينتجعون غيثا فقلت لصيدح انتجعي بلالا [٣]

وأن بلالا لم يقبل هذا المعنى ثم عقب بقوله : والكريم لا يرضى

---

(١) الموشح ص ٢٢٩.
(٢) الأغاني ١/ ٤٦ .
(٣) الموشح ص ٢١٢.

أن تنصرف المطايا عن سبيله فلا يبقى منها غير صيدح .

وفي كل ذلك نظر .

أما قول عمر فقد جرى فيه على مذهبه الذي تفرد به في الغزل ، والذي شهر به في حجازياته على وجه الخصوص ، حيث كان يتعرض للقادمات إلى الحج ويتعرضن له ، ومغامراته وقصصه في هذا الشأن ملحوظة في ديوانه بأدنى تأمل .

وأما قول الكميت الذي استنكر فيه الجمع بين الأنس أو الدل والشنب فإن ذلك من سطحية النظر ، ولو تؤمل لوجد أن الدل أو الأنس متعة معنوية في المحبوب تقترن ولا تتنافر مع المتعة الحسية البادية في الشنب ، ومن ثم فهما يجتمعان ويمتعان قلب الحبيب ، كما يعبران عن كمال جمال المحبوب .

ويبدو أن بلالا ، لا يريد إعطاء ذي الرمة ، ويتمحل له أسباب المنع ، وإلا فليس في قول ذي الرمة فساد في المعنى ، لأنه يبين أمرا طبيعيا في عادة الناس جروا عليه في معايشهم وهو انتجاع الغيث وما يترتب عليه من كد وتعب ، وحل وترحال، أما هو فقد قصد غاية سهلة ومأمونة فلوى زمام ناقته تجاه بلال ، وكذلك يصنع الممتحون مع الكرماء .

وثمة نماذج أخرى بدت تجاهها موافقة المؤلف على ما صدر فيها من نقد لكنه لم يعقب .

١ - انتقد[١] عمر بن أبي ربيعة مالك بن أسماء لأنه يكثر من ذكر الأماكن في شعره . ولماذا كان ذكر الأماكن مفسدا ؟ مع أننا نذكر لامرئ القيس قوله في صدر معلقته [٢]:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمال

وفيه ذكر أماكن متعددة !

٢ - ولم تعجب عبد الملك بن مروان كلمة البطن في شعر ابن الرقيات :

اسمع أمير المؤمنين لمدحتي وثنائها

أنت ابن معتلج البطا ح كديها وكدائها

ولبطن عائشة التي فضلت أروم نسائها [٣]

(١) تاريخ النقد ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) ديوان امرئ القيس ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٣) الموشح ص٢٢١، ٢٢٢.

ولا شك أن استهجان عبدالملك لكلمة البطن في محله ، وإن كان يرويها رجال الأنساب - كما يقول المؤلف - لكنه استهجان خاص لاقتران البطن بعائشة وإضافتها إليها . مما يلفت النظر إلى العضو المخصوص في المرأة حي ولو كان المراد من البطن النسل ، وذلك ما تحرج منه عبد الملك .

-٥-

وتوقف نظر المؤلف في صور النقد الذي جاوز حدود التأثر الفطري إلى نطاق التحليل ، فبين أن روح العلم كانت بعيدة عن حياة النقد المعلل ، وأن تحليل النصوص تحليلا يوقف على خصائصها لم يوجد عند هؤلاء النقاد الأدباء [١] . ثم ذكر قول ابن أبي عتيق في الرد علي من فضل الحارث بن خالد علي عمر بن أبي ربيعة : أشعر قريش من دق معناه ولطف مدخله ، وسهل مخرجه ، ومتن حشوه ، وتعطفت حواشيه وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته[٢] . وعقب عليه في قوله : فهذا كلام أشبه بكلام المحدثين في الألفاظ والمعاني والبدء والختام .

ولا شك أن هذا يشبه كلام المحدثين لاسيما البلاغيين منهم كما أنه ليس بغريب أن يوجد نقد تحليلي يخلو من روح العلم ما دام أصحابه أدباء .

---

(١) تاريخ النقد ص ٤٦ ،٤٧ .
(٢) الأغاني ١/ ٤٨ .

تمثلت للمؤلف رؤية نقدية جديدة على صعيد عرضه لقضايا النقد واتجاهاته أواخر القرن الأول عند الأدباء .

١- وأول ما عرض له تلك البواعث والمؤثرات التي ارتقت بالنقد ودفعت حركته نحو النمو والعمق[١] ولا شك أن رصد حركة هذه المؤثرات والبواعث على هذا النحو التنظيمي من أثر تقدم الدراسات الأدبية في العصر الحديث .

٢- وتحدث عن اتجاهات النقد ، وتجاوزه نقد الصياغة والمعنى والموازنة إلى نقد الشعور ، فعلل « لانحصار نقد الشعور في بيان ما قوى منه وما ضعف » .

لأن الجاهلي والإسلامي لا يقولون إلا عن وجد وعن شعور حقيقي »[٢] وهو تعليل وجيه .

٣- وفي سياق[٣] المنهج الرصدي المستنير بمناهج البحث في العصر الحديث أوضح مؤلفنا ما وصل إليه النقاد الأدباء من فهم ووعي وإدراك ، وسمو حس تجاه النص الشعري ، وما تناولوه واتجهوا إليه وتمذهبوا به ، ثم بين في رؤية نقدية اعتذارية عن هؤلاء توضح سر

---

(١) تاريخ النقد ص ٣٤ وما بعدها .
(٢) السابق ص ٤٠ ، ٤١ .
(٣) السابق ص ٤١ وما بعدها .

انحصار نقدهم في الصياغة والمعاني وبيان مذاهب الشعراء والموازنة بينهم ، إذ أرجع الأمر في ذلك إلى عدم تنوع الشعر العربي ، وانحصاره في اللون الغنائي فقط مما لم يفسح المجال أمام النقاد .

لنا أن نتساءل : هل تعددت ألوان الشعر بعد عهد النقاد الأدباء في صدر الإسلام حتى نخصهم بالجمود أمام لون واحد منه ؟ إن المعروف أن الشعر ظل غنائيا فقط عند غير أدباء صدر الإسلام وفي فترات أخرى بعيدة ومديدة . ووجدت تجاهه وقفات نقدية تجاوزت ما أشار إليه المؤلف ، ومن ثم لا نجد مفهوما لما ارتآه .

وفي سياق المنهج الرصدي أيضا ، وعند حديثه[1] عن طبقة الإسلاميين جرير والأخطل والفرزدق ألمح في رؤية ثاقبة أثر العصبية ، والهوى والميل في تشكيل الرؤية النقدية عند أدباد صدر الإسلام ، وجعل ألوانها باهتة أحيانا ، ومائعة أحيانا أخرى .

---

(١) تاريخ النقد ٤٥، ٤٦ .

الباب الثالث

رؤية قضايا النقد عند اللغويين والنحويين

تمهيد :

جل وقفات المؤلف في هذا الباب في رصد حركة النقد عند النحويين واللغويين ، وهو رصد تاريخي فني يرصد الظواهر وبواعثها وتطورها ، ويحللها مبينا أثرها وملامحها وأبعادها . أما الوقفات الفنية في هذا الإطار التاريخي الغالب فهى قليلة نسبيا ، يلمحها القارئ بوضوح ، ويؤكدها ندرة النماذج الشعرية المعروضة من كثرة ما رصده النقاد اللغويين ، وآخذوا عليه شعراء الجاهلية وصدر الإسلام .

وإذا كان المؤلف قد اعتذر عن عدم التوقف عند النماذج التي تصدى فيها النقاد لعيوب في بنية الكلمة أو ضبطها ، أو خلل في توافق لفظ لمعنى ، لأن ذلك ليس من النقد الفني الذي[1] يستهدفه فما باله لا يبرز الجانب الفني لدى النحاة واللغويين من خلال نماذج تطبيقية؟ إلا أنه من خلال الرؤية التاريخية الراصدة لحركة النقد لديهم، والمبينة لما سلكوه من منهج وأصلوه من قواعد ، واستساغوه من مذاهب ، وأيدوه من توجهات ، كان مكتفيا ومستغنيا عن ذكر النماذج التطبيقية ؟

---

(١) انظر : تاريخ النقد ص ٥٧ .

الرؤية الفنية تجاه نقد النحاة واللغويين

-١-

١ - استحسن أبو عمر بن العلاء قول دريد بن الصمة :

يغار علينا واترين فيشتفي
بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة
فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وقال : هو أحسن شعر قيل في الصبر على النوائب [١].

واستجاد قصيدة المثقب العبدي التي يقول فيها :

فإما أن تكون أخي بحق فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني عدوا أتقيك وتتقيني

وقال : لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه [٢].

وهكذا يذكر [٣] المؤلف بعض النماذج مستحسنا ما تتضمنه من معاني ، وما عبرت عنه من قيم شعورية وتعبيرية ، دون أن يعلل لاستحسانه الذي فهم من صمته تجاه استحسان أبي عمرو بن العلاء ، أو يفسر لنا سر كون قول دريد أحسن شعر قيل في الصبر على النوائب، أو كون قصيدة المثقب العبدي من الشعر الذي يجب أن يحفظ، على أننا نتوقف مع المؤلف في تفسيره الكاشف المحلل لرأي

---

(١) الأغاني ٣/ ٩ .
(٢) الشعر والشعراء ص١٩٠ .
(٣) تاريخ النقد ص ٥٧ ، ٥٨ .

أبي عمرو أيضا في شعر ذي الرمة ، إذ هو في هذه المرة لا يكتفي بالاستحسان الصامت ، إنما يتعداه إلى تعبير مبين كاشف يجلى الرؤية عند أبي عمرو ، فقد قال أبو عمرو في ذي الرمة :

« إنما شعره نقط عروس تضمحل عما قليل ، وأبعار ظباء لها شم في أول شمها ، ثم تعود إلى أرواح الأبعار»[1]. وقال المؤلف شارحا : « والنص مختلف ، وهو على كل حال يشبه شعر ذي الرمة بنقط العروس التي تذهب بالغسل ، وتفنى في أول ظهور وبأبعار الظباء التي لها رائحة مقبولة من أثر النبت الطيب الذي تأكله ، ثم لا تلبث أن تزول ، يريد أن يقول : إن شعره حلو أول ما تسمعه فإذا كررت إنشاده ضعف ، ويريد أنه غير خصب ولا قوي ولا عميق الأثر في النفس ، وإنما هو كالشيء البراق يعطى دفعة واحدة كل ما قاله رواء[2].

١ - عند حديث المؤلف[3] عن الأصول والقواعد التي أقام عليها النقاد وضع عدد معين من شعراء الجاهلية في طبقة واحدة ، ووضع عدد آخر كذلك من شعراء الإسلام ، أوضح أن الجودة والكثرة هما المقياسان اللذان اعتمدا في هذا المجال ، ثم قال : وجودة الشعر وكثرته مقياس حسن في النقد الأدبي لتقدير مكانة الشعراء . ولا شك في ذلك إذا سلم شعر الشاعر من الضياع ، وتوفرت الدواعي لحفظه ،وأما

(١) الموشح ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.
(٢) تاريخ النقد ص ٥٨، ٥٩ .
(٣) السابق ص ٦٤ ، وما بعدها .

إذا تعرض الكثير من هذا العشر للضياع فإن الحكم بالكثرة أو القلة على ما بقى من هذا الشعر ، ووضع الشاعر على أساسه في تصنيف طبقي يكون غير دقيق . قال أبو عمرو بن العلاء مقررا هذه الحقيقة : ومما يدل علي ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقى بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة [1].

٢- وعند حديثه [2] عما أسماه بالنقد التاريخي ذكر عددا ممن اتهموا بوضع الشعر وتزيدوا فيه ، متابعا في ذلك ما قاله النقاد فيهم ، وكان ممن اتهموا بوضع الشهعر : أبو عمرو بن العلاء .

وهذا الإتهام فيه ظلم كبير لأبي عمرو ، ولا يتفق مع ما عرف عنه من صدق وأمانة وثقة[3] . وهو أحد الأئمة الثقات الذين تواترت عنهم قراءات القرآن الكريم .

٣- عرض المؤلف أثناء حديثه عن طبقات الجاهليين والإسلاميين لاختلاف النقاد في أي من جرير والأخطل والفرزدق أشعر ، وساق لنا

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٣٤.
(٢) تاريخ النقد ص ٧٠ وما بعدها .
(٣) الزرقاني : مناهل العرفان ١/ ٤٥٦ دار الكتب العلمية ١٩٨٨ وابن الأنباري طبقات الأدباء ص٣٠ ، وما بعدها مكتبة المنارة ١٩٩٨م .

رأي بشار عندما سئل أي الثلاثة أشعر فقال :

لم يكن الأخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له ، وأفرطت فيه[1].

وعرض لرأي الأصفهاني القائل : واختلفوا بعد إجماعهم على تقديم هذه الطبقة في أيهم أحق بالتقديم على سائرها ، فأما قدماء أهل العلم والرواة ، فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ، لأنه لم يلحق شأنهما في الشعر ولا له مثل ما لهما في فنونه ، ولا تصرف كتصرفهما في سائره[2].

وعلق المؤلف بعد هذا العرض تعليقا يبدي عدم استحسانه للنيل من مكانة الأخطل ، أو على الأقل يبدي تحفظه علي هذين الرأيين فقال: أما بشار فهو على علمه وقوة طبعه شاعر ، ولكن من هم قدماء أهل العلم الذين يأبون على الأخطل أن يكون في الطبقة الأولى ؟

ويتضح من هذا التعليق التحفظي ضعف رأي بشار ، لأنه لم يحتسب في النقاد ، فهو (على علمه وقوة طبعه شاعر) أي لا ناقد فهل نسى مؤلفنا أن كل شاعر ناقد وليس كل ناقد شاعرا ؟

وقد يكون مقبولا منه ذلك التحفظ في رأي أبي الفرج لما فيه من إطلاق وتعميم لا يستساغ مثله في المفاضلة والموازنة .

---

(١) الموشح ص ١٤٧.
(٢) الأغاني ١٩ / ٤٨.

بدت للمؤلف رؤى جيدة جديدة أثناء عرضه التاريخي لنقد النحاة واللغويين .

١ - أول ما يلقانا [١] منها ذلك التنويه بما لديهم من ذوق أدبي فني يتجاوز في بعض الأحيان حدود النقد العلمي الجاف المعنى بالصياغة ونحوها .

وهذا لا شك من الإنصاف والحق وبعد النظر لدى ناقد لا يري الصورة من جانب، واحد أو زاوية واحدة .

٢ - ومنها ذلك التقصي في الاستنتاج من خلال الرصد التاريخي لحركة النقد العلمي ، والذي لخص من خلاله المؤلف ما أفاده النقد من نقدة اللغة والنحو بقوله [٢]. وكذلك أفادوا النقد الأدبي من ناحيتين : الأولى أنهم جمعوا كل ما قاله الأدباء قبلهم في الشعر والشعراء ، وكان لهم الفضل الأكبر في رواية الخصومات التي قامت حول كبار الشعراء، وذكر الحجج التي يوردها أنصار كل شاعر في تفضيله ، والناحية الأخرى أن لهم أنفسهم آراء قيمة في النقد ، وأحكاما علي الشعراء . وبقوله [٣] : « ليس من شك في أن ذاتية النقد تدعوا أحيانا

---

(١) تاريخ النقد ص ٥٣.
(٢) السابق ص ٥٧.
(٣) السابق ص ٦٠ ، ٦١ .

إلى الاضطراب ، ولاسيما في الفنون .. ولكن الذي كان بين اللغويين من التعصب والاحتجاج أنجى النقد من هذا الاضطراب .

٣- وقد أوضح المؤلف أيضا من خلال الرصد التاريخي تنوع النقد إلى علمي وفني وموضوعي وتاريخي ، ملقيا الضوء علي بواعث كل نوع ، ومسار حركته في تنظيم ينم عن رؤية نقدية كاشفة وعميقة[1].

(١) انظر : السابق ص ٥٧، ٥٨، ٦٨ ، ٧٠ .

الباب الرابع

رؤية نقد ابن سلام

كان ابن سلام الجمحي (٢٣٢هـ) - العالم الأديب الناقد الراوية الإخباري النحوي اللغوي صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء -أول من نظم البحث في أفكار من سبقه في الأدب والنقد ، وأحسن عرض هذه الأفكار ، والبرهنة عليها ، واستنباط الحقائق الأدبية منها ، وذلك في كتابه المشار إليه ، ولهذا وغيره خصه المؤلف ببحث خاص ونظرة نقدية مستقلة [١].

إذا تجاوزنا عن كثرة التحليلات الصائبة والجيدة أثناء تأريخ المؤلف لكتاب طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين سهل علينا أن نرصد على صعيد الرؤية النقدية النشطة عدة مواقف تعكس أصداء تخالف وتجاوب وعمق نظر وفكر وتحليل .

-١-

١ - كان التجاوب الذوقي والفكري مع ابن سلام سمة بارزة لدى صاحبنا أثناء حديثه عنه ، ففي فكرة الشعر الموضوع التي عرض لها ابن سلام أيد المؤلف دلالة أدلته القرآنية [٢]، فقد أبطل ابن سلام ما نسبه ابن إسحاق صاحب السيرة إلى عاد وثمود من أشعار ؛ لأن الله تعالى أخبر في القرآن الكريم أنه أهلكهم وأبادهم ولم يبق منهم باقية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴾ [٣]. فمن إذن حمل هذا الشعر، ومن أداه منذ آلاف السنين؟

---

(١) تاريخ النقد ص ٧٤ - ص ٨٨.

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٨ ، وما بعدها.

(٣)سورة النجم آية : ٥٠ - ٥١ .

ولا شك أن الله تعالي أهلك عـادا بريح صرصر عـاتية ، وأهلك ثمودا بالطاغية ، لكنه جل شأنه ينجي رسله والذين آمنوا معهم من كل عـذاب يسلطـه على أعـدائهم الكفـار ، وكـذلـك نجى هود أخـو عـاد والمؤمنون معـه ، ونجى صالح أخو ثمود ومن آمن مـعه [1].ومن ثم يتم التواصل بين الأجـيال والأمم ولا ينعدم من ينقل منهم إلى غـيرهم ممن جاء بعدهم ، ومن ثم لا توجد لابن سلام ولا للمؤلف حجة في الدليل القرآني على ما ذهبا إليه .

٢- وكـذلك أبطل ابن سلام شـعر ابـن إسحـاق الذي نسبـه إلى الأقدمين من عـاد مدعيا أن اللغـة العربية لم توجد فـيهم ، وأن أول من تكلم بها نبـي الله إسماعـيل عليه وعلى نبينـا السلام ، ولم يبد شـيخنا رحمه الله أي اعتراض على هذا الإبطال من قبل ابن سلام .

وإن من يستـقريء التاريخ يجد أن العـرب أمة قديمة ، فقـد كانوا بعد الطوفان ، وعصر نوح عليه السلام في عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسـم وجـديس وأميـم وجرهم وحـضـرموت ومن ينتـمي إليـهم من العـرب العـاربة ، من أبناء سـام بن نوح [2] . بل إن ابن سـلام ويتابعـه المؤلف يناقض نفسه حينما يستـدل بقول أبي عمرو بن العلاء : العرب

(١) الشوكاني : فتح القدير ٢/ ٢١٨، ٢١٩عالم الكتب .
(٢) الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أصول العرب ١/ ٨ دار الكتب العلمية .

كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم ، وبقوله : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا . فقد أثبت أبو عمرو - على غير ما فهم ابن سلام - لحمير وأقاصي اليمن لسانا في العربية . وإن كان يخالف لسان غيرهم وذلك معروف ومشهور بين القبائل العربية من تعدد اللهجات في لغتهم الواحدة .

٣- وعند حديث ابن سلام[١] عن أثر البيئة في شعر الشاعر، قرر أن لين لسان عدي بن زيد إنما هو من سكنه في الحيرة ومراكز الريف ، وقد اعتبر المؤلف أن هذه الفكرة المنبثقة من موضوعية النظرة النقدية فكرة عميقة [٢]. ولين شعر عدي بن زيد لا يكفي لتعليله أنه سكن الحيرة ومراكز الريف ، وإلا حرنا في تعليل نحت الفرزدق من صخر ، واغتراف جرير من بحر [٣].

٤- ومن أفكار ابن سلام التي عدها مؤلفنا أعمق من فكرة أثر البيئة في الشعر [٤]، فكرة تفاوت البيئات في كثرة الشعر وقلته ، والتي يقول فيها : وبالطائف شعراء وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ،

---

(١) طبقات الشعراء ص ٥٨.
(٢) تاريخ النقد ص ٨٥ .
(٣)د محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ص ٢١نهضة مصر .
(٤) تاريخ النقد ص ٨٥ .

ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف [1].

وفي الرد على هذه الفكرة يقول الدكتور محمد مندور : والواقع أنه إذا كان ابن سلام مصيبا في نظرته إلى انتحال الشعر فإنه أقل إصابة فيما عدا ذلك ، فتفسيره لندرة شعر بعض القرى مردود ، لأن الشعر ليس كله في الحرب ، ولا هو قاصر عليها ، بل إن فيه مصادرة على المطلوب ؛ فليس بصحيح أن الشعر كان نادرا في مكة مثلا خصوصا بعد الإسلام ، وإنما أسقط ابن سلام - لسبب لا نعرفه - الكثير من الغزلين وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة الذي لم يذكره أصلا [2].

-٢-

وعلى صعيد المخالفة في الرؤية النقدية تجلت عدة مواقف منها :

أن ابن سلام أنكر على ابن إسحاق إيراده لشعر منسوب إلى بعض القدماء الجاهليين [3] ، ثم وقع هو في مثل ما أنكره على ابن إسحاق [4] وقد علق على ذلك مؤلفنا بقوله : هذه الأبيات(أي التي نسبها ابن سلام إلى المستوغر بن ربيعة ، وإلى أعصر بن سعد) لابد أن تؤخذ بحذر فلينها وإسفافها ، وموضوعها ومعانيها لا تدع لها السبيل

(١) طبقات الشعراء ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) النقد المنهجي عند العرب ص ٢١.
(٣) طبقات ابن سلام ص ٢٨ .
(٤) السابق ص ٣٨.

ممهدة إلى التصديق بها ، والركون إليها [1].

والحق أن ابن سلام قد وقع فعلا في مثل ما عابه على ابن إسحاق حينما نسب أبياتا إلى قدماء الجاهليين ، لكن وصف هذه الأبيات بالإسفاف واللين وإعابة معانيها وموضوعها بهذا الشكل التعميمي لا ينهض دليلا على رد نسبتها إلى الجاهليين القدماء . وقد يكون من الصواب هنا الإحتجاج على ابن سلام بأن موقفه من الشعر القديم فيه شيء من المبالغة المشوبة بالتعصب على ابن إسحاق ، مما دفعه إلى رد ما ذكره جملة ، والاستدلال بما لا يسعفه إلى ما ذهب إليه كما مر آنفا.

٢- ومنها أن ابن سلام عد الراعي النميري رابع طبقة الإسلاميين الأول وذلك - في رأي المؤلف[2]- دون استناد إلى حجة ، أو إقامة دليل أو ما يسوغ هذا الرأي من شعر النميري [3].

ورؤية المؤلف في هذه القضية صائبة وموفقة ، فقد قطع ابن سلام على نفسه أنه سيذكر الحجة التي سوغت له اختيار من اختار من الشعراء في طبقاته [4].

٣- ومنها : أن ابن سلام صنف الشعراء في طبقات من معيار الجودة والكثرة كما يتجلى ذلك في حديثه عن الشعراء في طبقة كل

---

(١) تاريخ النقد ص ٨٦ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٣٤.
(٣) تاريخ النقد ص ٨٧ .
(٤) طبقات الشعراء ص ٤٠ .

منهم ، وفي رؤية المؤلف مؤاخذات جيدة على هذا المعيار ، فهو يراه مضطربا غير منضبط في وضع كعب بن زهير في الطبقة التالية من الجاهليين ، ووضع لبيد في الثالثةوطرفة في الرابعة وتأخير أربعة من كبار الجاهليين إلى السادسة ، وتقديم من هم دونهم إلى الخامسة ، كما يراه مضطربا أيضا في طبقات الإسلاميين [1]. ثم يرجع المؤلف سر هذا الاضطراب لما تمحله ابن سلام من وضع الشعراء في طبقات عشر ويقول :

فليس من الرأي في شيء أن يكون الشعراء عشر طبقات ، وليس من الممكن بحال أن نعرف من الفروق بين الشعراء ما يمهد لنا أن وزعهم على طبقات عشر ، والخصائص الفنية رقيقة متموجة لا تطيع الباحث إلى مثل هذا المدى .

ولكننا لم نجده يشير إلى فلسفة تربيع الشعراء في الطبقة الواحدة عند ابن سلام .

وكل ما قاله في هذا الصدد : أن جعل جماعة من الشعراء في منزلة واحدة فكرة قديمة فطن إليها الأدباء الإسلاميون في أن جريرا والفرزدق والأخطل طبقة ، ونماها اللغويون بجعلهم امرأ القيس وزهيرا والنابغة والأعشى طبقة ، وفكرة الطبقة الأولى توحي بالضرورة بطبقات أخري ، وكذلك فعل ابن سلام[2] .

---

(١) تاريخ النقد ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٢ ، ٨٣ .

ويبدو أن التصنيف الرباعي قائم على نوع من التحكم في العدد ، بل إن ابن سلام يصرح بذلك حين يحدثنا أنه وضع أوس ابن حجر في الطبقة الثانية مع أنه كان يستحق أن يوضع في الأولى ، غير أن اقتصاره على أربعة في كل طبقة هو الذي اضطره إلى ذلك [1].

-٣-

١ - هل كان ابن سلام أول مؤلف في النقد ؟ يقول المؤلف بذلك ولكنه لا يجزم به[2] . وثمة دراسات أخرى مستقصية لحركة النقد ونشاطه في القرن الثاني وأوائل الثالث تشير إلى تقدم الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب ١٢٢-٢١٦هـ) على ابن سلام بكتاب (فحولة الشعراء) الذي يرجح أنه أملاه على تلميذه أبي حاتم نحو عام ١٩٢ هـ وهو في سن الخامسة والسبعين ، وإن تميز كتاب ابن سلام بكبر الحجم ، ودراسة الشعراء وأشعارهم وطبقاتهم على أسس منهجية[3].

٢- ويرى المؤلف على ضوء تحليل لفكر ابن سلام وذوقه وملكته، أن قدرته الأدبية أضعف بكثير من قدرته العلمية على عكس

---

(١) إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٨ .
(٢) تاريخ النقد ص ٧٥ .
(٣) انظر تاريخ النقد الأدبي والبلاغة للدكتور محمد زغلول سلام ص ١٠٧ منشأة المعارف بالإسكندرية ودراسات في النقد الأدبي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٠٧ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

ما كان ينتظر منه في زمن تهيأت له فيه أسباب التفوق في الملكة الأدبية التي تتعمق في تحليل النصوص ، وكشف جوانبها الفنية ، وما يميز كل شاعر من خصائص [1]. وهذا حق لا مرية فيه ، لكن عذر ابن سلام أن المقصد التاريخي غلب على منهجه ، وأن النقد كان لديه أساسا من أسس التاريخ الأدبي [2].

٣- كذلك يرى أن تصنيف الشعراء ينبغي أن يقوم على التفوق والتوسط والتأخر[3] ، ولكن ما هي المعايير والضوابط الموضوعية والفنية التي تهيئ لهذا التصنيف الجديد ؟

٤- وأخيرا يبحث المؤلف عن مكانة شعراء القرى في الجاهلية فلا يجد في كتاب ابن سلام شيئا عنها ، ولا عن مكانة حسان بن ثابت، بل ولا شيئا عن شعراء كبار كالكميت والطرماح وعمر بن أبي ربيعة . كذلك يبحث عن سر جعل بعض الشعراء الجاهليين في طبقات الإسلاميين فلا يجد إجابة .

ولا شك أن ذلك كله من خلل في المنهج ، واضطراب في التصنيف ، مما يؤاخذ عليه ابن سلام .

---

(١) تاريخ النقد ص ٨٦ .
(٢) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ص ١٢ .
(٣) تاريخ النقد ص ٨٨ .

الباب الخامس

رؤية الخصومات النقدية بين القدماء والمحدثين

بين القديم والحديث حد زمني وفني فاصل - كما يرى مؤلفنا[1] فأماحد القديم فهو قبل الإسلام بنحو قرن أو يزيد قليلا ، وانتهاء في أوائل القرن الثاني ، ويعم شعراء الجاهلية جميعا وشعراء الإسلام إلى ما بعد جرير والفرزدق بقليل .

وأما حد الحديث فهو بدءا قبيل قيام الدولة العباسية ، ويمتد زمنيا إلى اليوم ، ويعم الشعراء من عهد بشار ومروان بن أبي حفصة ومطيع، وكل من جاء بعدهم إلى اليوم .

وليس من قصدنا أن نتوقف عند المرائي التاريخية لمؤلفنا وإلا ففي إطلاق مصطلح الحديث على الأدب من عهد بشار إلى يوم المؤلف كما زعم تفرد لا يوافق عليه من يتحدثون عن الأدب في عصر النهضة وما سبقه . وكل ما هنالك أننا نستفيد من تقسيم الأدب إلى قديم وحديث ما يصوره من بدء الصراع والتخاصم والجدل بين فريق من النقاد الذين آثروا الشعر القديم في زمنه ورجاله ، وفريق من الشعراء الذين حاولوا التجديد في ديباجة الشعر ، وفي صياغته وفي موسيقاه . وهذه الإفادة بدورها ليست غاية وهدفا إلا بقدر ما تكشف من رؤية فنية لمؤلفنا على جوانب عرضه التاريخي لحركة النقد في صراع القديم والحديث .

---

(١) تاريخ النقد ص ٩٠ .

١ - لخص المرحوم طه أحمد إبراهيم خصائص ومميزات الشعر العربي القديم ليتسنى له معرفة كنه التجديد الذي أضافه المحدثون والذي قام حوله التخاصم والجدل ، وهو في هذا الإطار[١] يقرر أن التجديد الفني الذي يحتسب في مجال النقد هو ما يقوم على أسس أربعة : نوع الشعر ، وإبعاد الأغراض المادية ، ومسايرة التطورات الثقافية الواسعة ، والانصراف عن روح الفردية .

ويقرر أيضا أن المحدثين لم يستهدفوا ذلك ولم يحققوه في محاولة التجديد ،ولا يرى لما قاموا به من تجديد في ديباجة القصيدة ولا في الصياغة والاحتفال بها ، ولا في الأوزان والاهتداء إلى الجديد منها وزنا له قيمة في ميزان النقد ، بل يرى أن هذه الأمور تعد في الأدب فروق فقط بين أدبين يتحدان في كثير من الخصائص والسمات لا استحالة [٢].

إن استبدال ديباجة بأخرى ، أو المبالغة في العنصر الشكلي البنائي من جانبي البديع والوزن إنما يرتكز على أصول له قديمة في الشعر العربي ، فلا مسوغ للقول بالتجديد المطلق ، لكن اشتراط تغيير نوع الشعر للبناء عليه في صرح التجديد لا مسوغ له من فن أو تاريخ ، فقد جدد الشعراء علي مر العصور ، وفي العصر الحديث خصوصا تجديدا محتسبا ، وظل شعرهم غنائيا لم يغيروه بقصصي أو ملحمي .

---

(١) تاريخ النقد ص ٩٤ .
(٢) السابق ص ١٠٤ .

٢- قضية الطبع والصنعة من بين قضايا النقد التي أثيرت أثناء الحديث عن القديم والحديث ، وبدا رأي مخالف لمؤلفنا سجله في أكثر من موضع [١]، يزعم فيه أن لا صنعة لزهير وأصحابه ممن عرف عنهم في الدراسات الأدبية القديمة[٢] والحديثة[٣] أنهم عبيد الشعر ، يحككونه وينقحونه في آماد بعيدة .

ولو كان المؤلف يقصد بنفي الصنعة عن زهير وكل الجاهليين والإسلاميين إلى زمن بشار نفى التكلف لصدق حكمه ، وبطل رأي من يخالفه ، أما وأنه قد قطع بأن مراده من نفي الصنعة نفي التنقيح والتهذيب ، وطول النظر في المنتج الإبداعي الشعري لإخراجه على أفضل صورة في الصياغة والمعنى إذ يقول : « وكل شيء عندهم بديهة وارتجال ، فلا صبر لهم على الأناة » ويقول : « وما يقال عن طفيل الغنوي ، وزهير بن أبي سلمى ، والحطيئة من أنهم كانوا أصحاب روية في الشعر ، وأنهم كانوا عبيدا له ، وأنهم شقوا به ، ليس معناه التكلف أو الصنعة » أما أنه وقد قرر ذلك الأمر العجيب الذي يفصل بين الصورة وما تصوره في عمل زهير وأصحابه ، ولا يحكم لهم بفن وصنعة في نزعتهم الشعرية ومذهبهم فقد أتى بما لم يحمل على مجاراته فيه ، والموافقة عليه .

---

(١) السابق ص ٩١ ، ٩٣ ، ٩٩ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ٢/ ٢١٧ دار صعب

(٣) انظر : الفن ومذاهبه للدكتور شوقي ضيف ص ٢٠ طبعة دار المعارف ، وفي الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين ص ٢٧١، ٢٨٤ .

قد تكون غاية زهير غير غاية مسلم بن الوليد في الصنعة الشعرية من جهة استهداف الأول لبيان المعنى وجلائه في أبهى صورة ، واستهداف الثاني إبراز القدرة الفنية في تملك زمام الصياغة ، لكن القدر الفني المشترك بينهما هو الصياغة المحكمة التي اقتصد فيها الأول في حدود المعاني والأفكار ، وبالغ فيها الثاني حتى ولو لم يكن المعنى أو الفكرة بحاجة إلى ذلك .

٣- وثمة رؤية مخالفة أيضا تجلت أثناء الحديث أيضا عن الصنعة عند المحدثين أمثال بشار وابن هرمة والعتابي ؛ فبناء على ما قرر من نفي الصنعة عند زهير وأمثاله ، يرى[١] أن مدرسة البيان في الشعر العربي لم تقم وتزدهر إلا في العصر العباسي على يد المحدثين من الشعراء .

ولعل الدكتور طه حسين يكفينا مؤونة الرد بقوله أثناء حديثه عن الخيال المادي ، وتعمد الصنعة لدى أوس بن حجر : ومن هاتين الخصلتين اللتين رأيناهما عند أوس استفاد الفن البياني الخالص عند هؤلاء الشعراء جميعا ، فكثر عندهم التشبيه والمجاز والاستعارة والافتنان فيها ، وإذا صح لنا هذا كله ، وعرفنا أن الذين بدءوا فاعتمدوا على التشبيه والاستعارة والمجاز في شعرهم ، وأكثروا منها ، وافتنوا في التصرف فيها إنما هم هؤلاء الشعراء الجاهليون ، وبخاصة أوس وزهير،عرفنا أن صناعة الفن البياني الخالص وتعمده والإلحاح عليه ليست كما كنا نظن مظهرا من مظاهر الحياة الأدبية الجديدة أيام بني

(١) تاريخ النقد ص ٩٨ .

العباس ، وإنما هى أقدم من ذلك وأبعد في تاريخ الشعر العربي أثرا ، نشأت في العصر الجاهلي [1].

-٣-

١- من منطلق التأثر الثقافي في العصر الحديث ، وما أسفرت عنه الحياة الأدبية من دراسات حول ألوان الشعر الغنائي والقصصي والملحمي يرى المؤلف أن الفرصة كانت سانحة أمام الشعراء المجددين للاستفادة من معين القرآن الفياض في المجال القصصي ، ولو أنهم غنموا هذه الفرصة لأبدعوا في هذا المجال ، وتخطوا حاجز الشعر الغنائي ولكنهم لم يفعلوا [2]. ولا راد لهذه الرؤية في الحكم على مصدرية القرآن القصصية ، وفي الحكم بنفي الاستفادة على صعيد البعد المعنوي والفكري ، والتأثر الفني للوقائع والأحداث التي صدق القرآن في عرضها تاريخيا ، وأبدع في صياغتها قصصيا ، لكننا إذا قرأنا شعر عمر بن أبي ربيعة الغزلي القصصي ، ورأينا إبداعاته في هذا الشأن تحرجنا من قبول تعميم الحكم بنفي الاستفادة مطلقا من أسلوب القرآن القصصي.

٢- وفي رؤية المؤلف المعاصرة يتدثر أبو نواس[3] بأثواب العذر رغم إخفاقه في التجديد من جهة ، وتجاوزه حد الاعتدال في السخرية

---

(١) الشعر الجاهلي ص ٢٧٢ .
(٢) تاريخ النقد ص ١٠٧.
(٣) المصدر السابق ص ١٠٩.

من العـرب والتنديد بهم ؛ فهـو ناقد فـذ وحيد حـاول أن يربط الأدب بالحياة في دعوة فنية لا شعوبية فيها ، فله ولأصحابه الفضل في تلمس الخروج من الأسر وفي المرونة التي يجب أن تكون للأبرياء .

أخفق أبو نواس في التجديد ، وجاوز الحد في السخرية والتنديد ومع ذلك هو في نظر مـؤلفنا نـاقد فـذ وحـيـد مرن ، وصـدق القـائل الحكيم : حبك الشيء يعمي ويصم !

الباب السادس

رؤية النقد في القرن الثالث

نشط النقد في القرن الثالث نشاطا ملحوظا في إطار نهضة علمية وفنية مزدهرة ، وعلى يد عدد من النقاد الذين ساهموا بنصيب وفير في دعم حركته وإثراء جوانبه . وإغنائه بما أفرزته الحياة الثقافية من ثقافات عربية وغير عربية . ومن هؤلاء النقاد الجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن المدبر ، وأبي العباس المبرد ، وأبي العباس ثعلب . وقد قسم المؤلف[1] من عنوا بالنقد في القرن الثالث إلى ذهنيات أربع بين كل ذهنية وأخرى تفاوت بعيد - على حد تعبيره - ذهنية اللغويين وذهنية الأدباء ، وذهنية العلماء الذين أخذوا نصيبا يسيرا من المعارف الأجنبية ، وذهنية العلماء الذين تأثروا كل التأثر بما نقل عن اليونان . ثم بين بعد هذا الإجمال في عرض تاريخ دور كل أصحاب ذهنية في مجال من مجالات النقد ، وتوقف بشكل خاص عند نقد ابن قتيبة كعالم ناقد جمع بين الثقافة العربية وغيرها . وعند قدامة بن جعفر كعالم ناقد طغت على إحساسه وفكره ثقافة اليونان وفلسفة اليونان في مجال البلاغة والأدب ومن خلال هذه الوقفة التاريخية نتعرف له بعض الرؤى في المجال النقدي .

-١-

١ - كانت قضية المتكلف (بمعنى الصانع) والمطبوع من الشعراء وكذلك المتكلف والمطبوع من الشعر من أهم القاضايا التي عالجها أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) وأوضح معالمها

(١) تاريخ النقد ص ١١٢ .

تجاهها رأيه . والمتكلف من الشعراء من يقبل على شعره بعد أن يواتيه به طبعه فيثقفه ويهذبه وينقحه كزهير[1] وأصحابه ، والمطبوع من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ، ووشي الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر [2].

والمتكلف وإن كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه [3].

وقد وافق المؤلف[4] على مصطلح المطبوع من الشعراء ، والمطبوع من الشعر والذي لم يتعرض له ابن قتيبة نصا ، ولكنه جاء من مفهوم العكس عند حديثه عن المتكلف من الشعر ثم خالف في مصطلح المتكلف من الشعراء بناء على ما فهمه ظاهرا من كلام ابن قتيبة ، وأنه يقصد بالطبع في الشعر معنى الارتجال ، وأن الشاعر المطبوع يكاد يكون قاصرا عنده على المرتجل الذي يقول على البديهة دون إعداد .

وعلى نحو ما فهم المؤلف جرى عدد من

(١) الشعر والشعراء ص ٢٠ ، وما بعدها .
(٢) السابق ص ٢٦.
(٣) نفسه ص ٢٥ .
(٤) تاريخ النقد ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

البـــاحثين والدارسين [1]، والحقيقة الواضحة من عبارات ابن قتيبة لا تحتمل مخالفته في الرأي ، أو مؤاخذته بالنقد . يقول الدكتور إحسان عباس[2] : وقد خفى على الدارسين المحدثين أن قلة المصطلح النقدي لدى ابن قتيبة جعلته يستعمل هاتين الكلمتين بمدلولات مختلفة ؛ فالتكلف حين يكون وصفا للشاعر مختلف عن التكلف حين يكون وصفا للشعر ، تقول شاعر متكلف بكسر اللام وتعني ما نعنيه حين نقول إنه صانع ، ولهذا يقول ابن قتيبة : فالمتكلف من الشعراء هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة ، ولا نظن أن ابن قتيبة يسترذل شعر زهير والحطيئة ، أو يراهما دون من يسميهم الشعراء المطبوعين وتقول شاعر مطبوع ، وتعني به ما نعنيه بعفوية القول وتدفقه ، وهذا يعني أن الطبع يشمل القول على البداهة مثلما يشمل الصنعة الخفية التي لا تظهر علي وجه العمل الفني . وإذا قلت : شعر متكلف عنيت ظهور التفكر وشدة العناد ورشح الجبين وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني إليه حاجة ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه ، وهذا يقابل ما تسميه رداءة الصنعة ، وليس كذلك شعر زهير والحطيئة .

٢- وتعرض أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ) لما ينبغي أن

---

(١) انظر : النقد المنهجي عند العرب للدكتوور محمد مندور ص ٣٦ وما بعدها وتاريخ النقد الأدبي والبلاغة للدكتور محمد زغلول سلام ص ١٥٠ ، ١٥١.
(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٩ بتصرف يسير .

يستخدم في المدح من صفات وفضائل ، حيث قرر أن الإنسان يمدح بما فيه من صفات نفسية كالعقل والشجاعة والعدل والعفة ، وما ينطوي تحت كل واحدة منها من صفات [1].

ولما كان قدامة - كما سلف - من العلماء الذي تأثروا بالثقافات الأجنبية ، لاسيما كتاب الخطابة لأرسطو ، فإن آثار هذه الثقافة تنعكس على رؤيته النقدية، وتقعيده للمديح على هذا النحو الذي سبق .

وكانت لمؤلفنا وقفة جيدة[2] مخالفة لرؤية قدامة ، إذ يقول : وكل ذلك تحكيم للقواعد الفلسفية في معاني الشعر العربي ، وأكثر هذا رسوم عقيمة لا طائل تحتها ، ورسوم لا تصل إلى روح الشعر ، ولا تدرك العناصر السامية التي يكون بها الشعر شعرا ، وأين شخصية الشاعر ؟ وأين أنفاسه وزفراته ولواعجه واهتياجات جوانحه؟ وأين ذهنه السابع في الكون إذا عدت له المعاني عدا وحصرت أمامه الأفكار، وأين أثر الحالات التي تثير الشعراء ، وتلهمهم وتفيض عليهم بالمعاني ، ثم يدلل على بطلان مذهب قدامة بقوله : ولو صح ما يقوله قدامة لنضب الشعر في جيل واحد ، ولاستحال نظما ، ولو صح لخاض الشعراء في كل الأغراض ، ولما كان من تعليل ممكن لأن يجيد شاعر كالفرزدق المديح ويتخلف تخلفا زريا في الرثاء ، ولو صح لكان

---

(١) نقد الشعر ص ٩٥ وما بعدها تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) تاريخ النقد ص ١٣٢، ١٣٣.

الهجاء صورة واحدة في كل العصور ، واحدة عند كل الشعراء . ويحتكم المؤلف إضافة إلى ما ذكره إلى تاريخ الأدب في تفنيد رأي قدامة ، وفي رؤية الواقع الأدبي ، ويخلص من كل ذلك إلى النعي على قدامة ومن سلك مسلكه .

-٢-

وإذا تجلت الرؤية المخالفة لتنظير قدامة على هذا النحو فإن في المجال التطبيقي سبحات لمؤلفنا تنم عن عمق فكر وسمو ذوق وبعد نظر:

١ - ذكر قدامة[١] بيت عبيد الله بن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

في مقابلة بيته في مدح عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

ثم بين أن ذلك من عيوب المدح ؛ لأن عبيد الله عدل في مدح عبد الملك عن الفضائل النفسية إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة.

وصحيح أن البيت لم يقع موقعا حسنا من نفس عبد الملك لا لأنه

(١) نقد الشعر ص ١٨٤ ، ١٨٥.

عدل عن الفضائل النفسية كما يقول قدامه ، بل لأن بين البيتين بونا شاسعا في الجمال والقوة والروح كما يقول المؤلف [1]؛ لأن بيت ابن الرقيات في مصعب أروع وقعا ،وأعلى نفسا وأمس بالنور العلوي ، وأشد اتصالا بالله الذي يحرص الخلفاء على أن يمثلوه في الأرض ، ولهذا وحده عتب عبد الملك على الشاعر ، وليس لخلو بيته من الفضائل النفسية ؛ فليس في بيت مصعب شيء منها علي النحو الذي يفهمه قدامة .

٢- وذكر قدامة[2] أيضا قول الشاعر :

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا

يغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

وعدهما من خبيث الهجاء ، لأن الشاعر تعمد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم .

ويخالف المؤلف[3] قدامة في فهم خبث الهجاء في هذين البيتين على هذا النحو . ويقرر أن في البيتين شيئا من الجمال الفني لا يرجع إلى أن الشاعر قصد إلى أضداد بعض الفضائل فرماهم بها ، وإنما موطن الجمال في هدوئهما وخفتهما ، وروح التهكم والسخرية فيهما ،

---

(١) تاريخ النقد ص ١٣٤ .

(٢) نقد الشعر ص ١١٤ .

(٣) تاريخ النقد ص ١٣٤ .

جمالهما في لذعهما ، في تصويرهما هؤلاء الناس بالتبجح وفقد الحياء، وجمود العرض ، وعدم المبالاة ، قوة البيتين في أنهم لا يأبهون لفجرهم ، ولا يكترثون لغدرهم ، ولا يغضوب أبصارهم من الخجل ، ولا يدركون أنهم يأتون من الأمر منكرا .

٣-وفي تقسيم الشعر إلى ثمانية أضرب [١] منعوتة بما بستجاد ويستقبح ، لم يسعف قدامة عند التطبيق ذوق أصيل ، وحس مرهف، ومن ثم رصد المؤلف [٢] في رؤية مخالفة ألفاظا في شواهد قدامة تعوزها الفصاحة ، وأوزانا هى كغيرها في السهولة ، وشواهد تقصر عنها الرؤية الشاملة .

-٣-

١ -أما على صعيد الرؤية المستقلة لبعض قضايا النقد ، وعلي جانب رصد الحركة النقدية عند ابن قتيبة وقدامة ، فإن المؤلف يعرض للقضايا التالية:

أولا - مدى ما أفاده النقد من جهود ابن قتيبة . وهنا يقرر أن ابن قتيبة أفاد النقد في باب التنظيم والتجديد ووضع القواعد ، وقلل من خطورة تقلب الأذواق الأدبية وتموجها بما تستأنس به من مرجعية القاعدة والتحديد لبعض عناصر الأدب الجيدة لكنه يسأل ويجيب

(١) نقد الشعر ص ٦٩ .
(٢) تاريخ النقد ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

فيقول : وهل هذه القواعد كفاية في تذوق الأدب ؟ وهل تستطيع أن تصل إلى قراءة الشعر ، وأن تبلغ منه الأعماق ؟ إنها دافعة من غير شك، مقوية للحكم على الشعر ، ولكن مداها يقصر عن إدراك كثير من روحانية الشعر وجماله الفني .

وما الجهد الذي بذله ابن قتيبة ؟ يجيبنا بقوله : وجاء ابن قتيبة فلم يهدنا في الشعر إلى جمال جديد ولم يسبح بنا في آفاق جديدة ، وما زاد على أن أخذ تلك العناصر المتفرقة فضم أشتاتها ، ووضعها في أصول قاصرة عن أن تستوعب كل شيء في الشعر[1] .

وأشعر بقسوة هذا الحكم على ما جاء به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، وأثناء عرضه للشعراء في الجاهلية والإسلام ، وعلى جهده في هذا الصدد . لقد عدد بعض الدارسين جوانب كبرى نقدية نهض به ابن قتيبة ثم قال : وبذلك كان من النقاد الذين لم يتهيبوا الوقوف عند القضايا النقدية الكبرى ، كما كان من أبرزهم إلتفاتا إلى العوامل النفسية والمعنى الفني الكلي ، وبينما ذهب الجاحظ إلى وضع نظريات لم ينضجها البحث والدرس ، وضع ابن قتيبة استنتاجات تدل على خاطر ذوقي نقدي أصيل كانت كفاء بنقل النقد إلى مرحلة جديدة[2].

ثانيا- على ضوء نظرية قدامة في نقد الشعر ، ومحاولة تطبيق ما

(١) تاريخ النقد ص ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٢) إحسان عباس « تاريخ النقد الأدبي ص ١١٥ ».

استفاده من ثقافة غير عربية على شواهد من شعرنا العربي تعرض مؤلفنا لقضية هامة وخطيرة كانت ولا تزال تحتل مساحة من فكر الأدباد والدارسين ، وتلك هى علمية النقد ، وتحكيم القواعد الفلسفية في معاني شعرنا العربي .

أما تحكيم القواعد الفلسفية فقد مر بنا رأيه تجاهها ، وأما علمية النقد كما تجلت بوضوح عند قدامة ، واقتصد فيها من قبله ابن قتيبة ، فقد قرر[1] أنه لا يمكن التسليم بها ؛لأن النقد لا يمكن أن يكون علميا لعدة أمور منها :

١- أن العلمية نظريات مطردة ، وأن مثل هذه النظريات لا تنسجم مع الأدب ، ولا مع عناصره .. ومثال ذلك ما وضع من نعوت نظرية للفظ الجيد ، فتلك النعوت تقتضى أن تتحقق الجودة للفظ إذا ما وجدت فيه سواء جاء اللفظ في قصيدة ، أو خطبة ، أو آية قرآنية ، لكن الواقع لا يؤيد ذلك ، ولا يقره فلفظ يؤذي جاء في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾[2] في غاية الحسن والجمال بينما اللفظ نفسه جاء قبيحا في قول المتنبي :

تلذ له المروءة وهى تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

٢- عماد النقد الذوق الفني وهو ينفر من قواعد ونظريات تحد

---

(١) تاريخ النقد ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

حريته في فهم النص ، واستشعار جماله الفني ، لأن الذوق يختلف باختلاف الأشخاص ، ويتفاوت بتفاوت الأفراد .

وتلك وجهة نظر نقدية صائبة تجاه النقد التقليدي العلمي ، والذي هو أقرب إلى روح البلاغة ، وأبعد من روح النقد الذي يعتمد علي الذوق إلى جانب ما يكتسبه الأديب والناقد من دربه وثقافة ، ومن ثم أشار المؤلف إلى أننا نستطيع أن نستعين به فقط دون أن نطلقه من كل قيد وذلك بشروط معينة .

الباب السابع
رؤية النقد في القرن الرابع

ازدهر النقد في القرن الرابع وكثرت بحوثه إثر ازدهار حركة الشعر ، ووضوح كل عناصره الفنية . وقد حفل النقاد في هذا القرن على نحو خاص بالموازنة بين الشعراء ، واستقصاء جوانب البحث في كثير من قضايا النقد القديمة والحديثة .

وكانت خواص النقد تتحدد في خصوبته واتساع آفاقه ، وتنوع نظراته ، واعتماده علي الذوق الأدبي السليم وائتناسه بمناحي العلم في الصورة والشكل لا في الجوهر والروح .

نقاد هذا القرن كثيرون ، وكثيرة قضايا النقد التي أثاروها ، لكن الشيخ طه أحمد إبراهيم (صاحب دراستنا) يؤرخ للنقد في هذا القرن من خلال نظرة عامة كاشفة لجوانب الحركة النقدية وأبعاد خطاها ، ونظرة خاصة لأشهر النقاد الذين تصدى بعضهم لأشهر الشعراء ، لأبي الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ، وأبي الفضل بن العميد ، والصاحب بن عباد ، وأبي علي الحاتمي ، وأبي الحسن بن لنك ، وأبي الحسن الآمدي والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني من النقاد ، وللبحتري وأبي تمام والمتنبي من الشعراء . فكيف كان رصده لرؤى النقاد في بعض القاضايا التي استوقفته مؤيدا أو مخالفا ، أو مضيفا من رؤيته هو ، وتحليله هو الذي يقوم علي ذوقه وفكره وثقافته ؟

بدا التأييد لوجهات نظر نقدية تجاه بعض القضايا في مرات عديدة نكتفي منها ببعض الشواهد :

١- مما عاب الآمدي [١](ت٣٧٠) على أبي تمام قبح التجنيس في قوله :

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت

سلام سلمى ومهما أورق السلم

ومما استحسنه[٢] له : يا ربع لو ربعوا على ابن هموم

وقوله : أرامة كنت مألف كل ريم

وقد ذكر المؤلف[٣] رأي الآمدي مكتفيا بما أبداه من سبب القبح والاستحسان، وذلك على صعيد التوافق في الرأي .

٢-ومما عاب القاضي[٤] على بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦هـ) على أبي تمام أيضا من قبيح الطباق ، وإفساده للمعنى قوله :

حلت محل البكر من معطى وقد زفت من المعطى زفاف الأيم

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ١/ ٢٨٤ تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف . (٢) السابق ص ٢٨٦. (٣) تاريخ النقد ص ١٥٤ .
(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٧٩ تحقيق محمد أبو الفضل وعلي البجاوي طبعة عيس الحلبي .

وقد أطال الجرجاني في شرح معنى الأيم في مقابل البكر ، لكن مؤلفنا أضاف[1] إلى البيت السابق بيتا تقدمه في نص أبي تمام هو :

وصنيعه لك ثيب أهدتها

وهى الكعاب لعائذ بك مصرم

حلت محل البكر من معطى وقد

زفت من المعطى زفات الأيم

ثم اختصر حديث الجرجاني الطويل في بيان فساد الطباق وجنايته على المعنى فقال : فقد جاء في البيت الأول بالكعاب علي أن تقوم مقام البكر ، ليجعلها ضد الثيب فيحدث الطباق . والكعاب هى التي نهد ثديها وكعب ، وقد تكون بكرا وقد تكون ثيبا ، وفي البيت الثاني جعل البكر مقابل الأيم وذلك خطأ ؛ لأن الأيم هى التي مات عنها زوجها ثيبا أو بكرا ، كبيرة أو صغيرة ، فالبكر التي مات عنها زوجها قبل الدخول من الأيامى ، وكذلك جنى الطباق على البيتين فأفسدهما جميعا .

وهو في هذه الإضافة ، وفي هذا الإيجاز متأثر بما أورده الأمدي في هذين البيتين [2].

---

(١) تاريخ النقد ص ١٦٠ -

(٢) الموازنة ١/ ١٦٦.

١ - شغلت قضية الشعر الفلسفي والحكمي ، أو المردود العلمي والثقافي ، والتعمق الذهني على شاعرية المبدعين كثيرا من نقاد القرن الرابع الذين لم يرقهم ما عنى به أبو تمام من تعمق فكري ، ونظرات فلسفية في الكون والحياة ، وخروج على طريقة العرب ومذهبهم في المعاني ، ولم يرقهم كذلك صنيع المتنبي في نزعته الفلسفية . وقد خالفهم المؤلف في الاتجاه وخطأهم فيه قائلا : عيب أبي تمام أنه عمد إلى الألفاظ الضخمة ، وإلى البديع ، وإلى الفلسفة ، وأراد أن يؤلف من هذا الجمع الذي لا يأتلف شعره فوقع فيما وقع فيه من الخطأ والانحراف ، فليس الذنب في الواقع ذنب الفلسفة ، وإنما هو ذنب المذهب الشعري عند أبي تمام ، وأما عند المتنبي فالأمر واضح ، معانيه عميقة حقا ، ولكن لا غموض فيها . فإن كانت هذه المعاني فلسفية ، فذلك فضل لا عيب ، ذلك لأن المهم أن يشعر الشاعر حين يفكر ، وأن يتأمل في الكون وفي الناس وفي الموت وهو مهتاج ، فإذا صحب الإحساس النظرات الفلسفية في الشعر جاء ساميا بعيد الغور ، وهذا ما نجده عند المتنبي[١] .

ولا تعارض هنا بين ما ذهب[٢] إليه المؤلف سابقا في قضية علمية النقد ، وأنه لا يمكنه أن يكون كذلك ، وإنما يستعين به النقاد فقط في

---

(١) تاريخ النقد ص ١٦٨ .

(٢) انظر صفحة ص ٧١ , ٧٢ من هذا البحث .

ظل ضوابط محددة أشار إليها ، وبين ما يقرره هنا من الأثر الطيب للتوظيف الثقافي والفلسفي ، والفكري ، في تنمية التجربة الشعرية وإثرائها .

١ - لكننا لا نحمد المخالفة في كل صورها ، قد تكون علي غير حق . نرى ذلك في هذا النموذج النقدي :

اعتذر القاضي الجرجاني[١] عن المتنبي في المبالغة التي وردت في قوله:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم

إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

لكن المؤلف لا يرى وجها لقبول هذا العذر الذي سوغه الجرجاني وشاعره في الاقتداء بمن سبق من الشعراء وترسم خطاهم في هذا المعنى ، ويقول :

« قد يفزع الهارب من صوت العصافير وقد يتوهم في كل شبح مغتالا يترصده أو يتبعه ، فأما أن يرى غير شيء فيظنه رجلا ، فذلك تفسير لحالة الهارب منحرف غير صحيح » .

وأحسب أن الخوف والذعر إذا استبد بإنسان أخرجاه في تصوراته إلى الحالة التي عبر عنها المتنبي ، وهى حالة الوهم الشديد مع اليأس من النجاة .

---

(١) الوساطة ص ٤٢٤، ٤٢٥.

إذا تجاوزنا الوقفات التحليلية لجهود النقاد في القرن الرابع والتي عبرت في إطار الرؤية التاريخية عن ذوق وحس وثقافة نقدية ناضجة ، فإننا على صعيد الرؤية النقدية الخالصة نتابع المؤلف في عدد من رؤى جديدة تجاه بعض القضايا :

١- تبلور للنقاد موقف جماعي في ذم الغلو والمبالغة والإحالة والإغراق ولم يبد من جهتهم تعليل يفلسف موقفهم ، أو يشرح دوافعه، أو يظهر العلة في الذم والتقبيح .

أما هو فقد نهض لهذه المهمة فبين[1] أن السبب يرجع إلى أن الأدب الذي يصور الحياة ، ويفسر جوانبها ، والذي هو مزيج من الواقع المصور ، وتجربة المبدع تجاه هذا الواقع ، يجب أن يدنو من الحياة ويلائمها ويتمشى معها ، معتدلا لا غلو فيه ولا إفراط كقول البحتري :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

فليس الربيع كذلك في الوجود ، وإنما الشاعر هو الذي خلع عليه تلك الصور ، وهي سائغة مقبولة ، بينها وبين الواقع تناسب وتشابه وانسجام . وقد أتى الشاعر بفعل المقاربة ليتجنب الغلو.ومن أجل الحياة تفسيرا جاريا على سننها تكون الإحالة والمبالغة والإفراط والغلو من

(١) تاريخ النقد ص ١٦٣.

العناصر الزائفة المنحرفة عن النهج المحمود .

٢- وثمة الموازنة التي أنتهجها الآمدي ، أو زعم أنه سينتهجها في دراسة شعري البحتري وأبي تمام ، فعلى ضوء هذه الموازنة ينبثق للمؤلف[١] رأي جيد في منهج الأمدي يعيب عليه فيه قصر الموازنة على الديباجة الشعرية في القصائد المتحدة في الوزن والقافية ، وقصورها عن أشياء أخرى كالأغراض والمعاني في داخلها ، والاحساسات والأخيلة .

٣- وكذلك في موقف الجرجاني المتموج من تصنيف صاحبه المتنبي فهو مرة يدعو إلى سلكة في زمرة شعراء الصنعة المحضة ، ومرة أخرى يدعو إلى سلكه مع شعراء الصنعة مع شيء من الطبع ، وثالثة يدعو إلى جعله وسطا بين أبي تمام ومسلم بن الوليد .

يقول المؤلف[٢] : وفي هذا الكلام انحراف وزيغ وقصور كبير ، فالمتنبي شاعر فذ ، عبقري لم يسر علي نهج أحد ، ولم يحاك أحدا ، ولم ينزع إلى طريقة من طرق المحدثين حتى نعدل به إليها . ذلك رأي المؤلف في المتنبي ، وهو رأي يدفع إليه الإعجاب بالمتنبي كما هو واضح ، ولكن شعر المتنبي يتموج - سواء بقصد أو بغير قصد - بين صنعة محكمة ، و طبع فياض ، مما يجعل البت في أمر مدرسته ومنزعه أمرا غير مأمون المخالفة ، ومن هنا كانت نظرة الجرجاني إلى شعر المتنبي على ضوء خصائصه وعناصره ، دون تدخل من قبله في البت بحكم جريا على طريقته في الوساطة [٣].

---

(١) السابق ص ١٨٠ . (٢) نفسه ص ١٨٨ .

(٣) انظر -مثلا- ص ١٠١ حديثه في الموازنة بين المتنبي وابن المعتز.

خاتمة

ليس أمام القارئ لكتاب (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) إلى نهايته إلا أن يقف مشدوهاً أمام هذا الجهد الذي لا يمكن تجاوزه أو عدم التسليم به، وهي خدمة مؤلفه لتاريخ النقد العربي في الفترة من الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع على نحو جديد لا يكتفي بالرصد وإنما يتجاوزه إلى التحليل والتعليل والتعديل في إطار تنظيمي رائع ، وعلى ضوء رؤية ثقافية عميقة ، أفرزتها مكتسبات علمية من مصادر عربية وغربية .

لقد كانت هذه الخدمة الرائدة مفتاح خير وبركة لكثير من الدارسين والباحثين الذين اقتفوا أثر المرحوم طه أحمد إبراهيم إما في أسلوبه وفكره ، وإما في منهجه وطريقته ، كما نري عند الدكتور شوقي ضيف[1] في تأريخه للنقد الأدبي ، والدكتور إحسان عباس[2] كذلك ، والدكتور زغلول سلام[3]، والدكتور محمد مندور[4] .

٢- ولم تكن الدراسة التاريخية هي الغاية الواحدة في دراسة تاريخ النقد الأدبي ، فقد استطاع المؤلف بحكم ذوقه الأدبي الذي تأصل لديه في ظل ملكة أدبية شاعرة ، وبحكم مكتسباته الثقافية المتنوعة ، وتمرسه في مجال التدريس أن يبسط رؤية نقدية على كبريات

---

(١) له في النقد كتابان هما : (النقد) و(في النقد الأدبي) .
(٢) له كتاب : (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) .
(٣) له كتاب : (تاريخ النقد والبلاغة) .
(٤) له كتاب : (النقد المنهجي عند العرب) .

المسائل النقدية والقضايا في الفترة التي أرخ لها .

٣- جل الآراء التي أداها تستشرف الثقافة العربية في أصالتها وروعتها مستضيئة بما أحدثه التطور الهائل في مجال العلوم والفنون في العصر الحديث ، وأثر به على صعيد الأذواق والمشاعر والأفكار .

٤- هناك بعض الوقفات التي تعكس تأثرا بمكتسبات ثقافية غير عربية ، وهي قليلة أو نادرة ، كدعوته في أن يتجاوز الشعر العربي حدود الغنائية إلى مجالات أرحب كما في الشعر الإغريقي [١] .

٥- لم تكن رؤى المؤلف جميعا على صعيد الصواب - كما قيل - فمنها المقبول الجيد ، ومنها المردود ، وكذلك شأن كل ناقد قديم وحديث ، وتناول المؤلف لكبار النقاد بالمؤاخذة أكبر دليل على ذلك لكننا رصدنا له على صعيد الآراء الجيدة ما يدل على عمق في الرؤية وبعد في التحليل والتعليل صادرين عن حس نقدي أصيل دعمته ثقافة عميقة ، وممارسة طويلة .

إن الجيد المقبول من رؤاه ليضعه في مصاف الكبار من نقادنا في العصر الحديث .

---

(١) انظر ص ١٠٧ من كتاب المؤلف .

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - الآمدي : الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠هـ) .

الموازنة بين أبي تمام والبحتري . دار المعارف الطبعة الرابعة .

٣- إحسان عباس (الدكتور) .

تاريخ النقد الأدبي عند العرب . دار الثقافة بيروت .

٤ - الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي

الأغاني . دار صعب بيروت .

٥ - الألوسي : السيد محمود شكري .

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . دار الكتب العلمية بيروت.

٦ - امرؤ القيس :

ديوان شعره . دار بيروت ١٩٨٣م .

٧- الباقلاني : القاضي أبو بكر (ت ٣٧٢ هـ) .

إعجاز القرآن . مكتبة مصر .

٨- الجاحظ : عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .

البيان والتبيين . دار صعب بيروت .

٩- الزرقاني : محمد عبد العظيم
مناهل العرفان . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨م
١٠ - الزركلي : خير الدين (ت
الأعلام . دار العلم للملايين
١١- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت
الإتقان في علوم القرآن . دار المعرفة بيروت
١٢- شوقي ضيف (الدكتور)
- الأدب العربي المعاصر . دار المعارف .
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي . دار المعارف الطبعة الخامسة
- (النقد) في سلسلة فنون الأدب العربي دار المعارف
١٣- الشوكاني : محمد بن علي بن محمد (ت ٢٥٠ هـ)
فتح القدير . عالم الكتب .
١٤ - طه أحمد إبراهيم (ت
تاريخ النقد الأدبي عند العرب . دار الحكمة بيروت لبنان .
١٥ - طه حسين : (الدكتور)
في الشعر الجاهلي . دار المعارف . الطبعة العاشرة

١٦- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله مسلم (ت ٢٧٦ هـ) :

الشعر والشعراء . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨١ م .

١٧ - قدامة بن جعفر : أبو الفرج (ت ٣٣٧هـ)

نقد الشعر . تحقيق الدكتور خفاجي . الكليات الأزهرية .

١٨ - القرشي : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت ١٧٠ هـ)

جمهرة أشعار العرب . دار الميسرة بيروت ١٩٨٣م .

١٩ - محمد زغلول سلام : (الدكتور) :

تاريخ النقد الأدبي والبلاغة . منشأة المعارف .

٢٠ - محمد بن سلام الجمحي .

طبقات فحول الشعراء . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢ م .

٢١- محمد عبد المنعم خفاجي : (الدكتور)

دراسات في النقد الأدبي . دار الطباعة المحمدية .

٢٢- محمد العزب : (الدكتور)

عن اللغة والأدب والنقد . دار المعارف .

٢٣- محمد مندور : (الدكتور)

النقد المنهجي عند العرب . نهضة مصر .

٢٤- المرزباني : أبو عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ)

الموشح . دار الكتب العليمة ١٩٩٥ م .

٢٥- ابن منظور : (ت ٧١١ هـ)

لسان العرب .